

الخروج من الثابوت

مصطفى محمود



منتدی سور الأزبکیه

WWW.BOOKS4ALL.NET

الخروج من الثنا بوقت

مصطفى محمود

اللوحات الداخلية بريشة الفنان « إيهاب شاكر »

المنبعة العالمية ١٦، ١٧ ش مزرع سعد بالقاهرة

كانت العربية منحوض شوارع ضيقة مليئة بالحفر وبين حين وآخر يتصاعد الرشاش فيغرق النوافذ ويترنل السائق لينزع العربية من حفرة عميقة مليئة بماء المطر ثم يعود ليكركر في طريقه ونحن نتخضض في أماكتنا والعرق يسيل على جباهنا من شدة الرطوبة .. وكان الدليل «كاكوما» إلى جوارى يصف المناظر التي نمر بها ويشير بيده قائلاً :

هذه دلهى عاصمة الهند القديمة شيبت سنة ١٦٣٨ .. وهذه العمار التي تراها يعود تاريخها لأكثر من ثلاثمائة عام وهذا النهر الذي يتهادى أمامنا هو نهر «جمنا» أحد أفرع نهر الكنجج ..

وكان على الشاطيء أمامى مئات الهنود الفقراء وقد افترشوا الأرض ونصبوا خياماً مهلهلة من الحرق القديمة وكان الدباب والقذارة في كل مكان حيثما أرسلت بصرى ..

وساءلت نفسى .. من أين أنى طاغور بكل الجمال والنقاء والشاعرية التي قطرها في قصائده ودواوينه كالرحيق المسكن ..

كانت الصورة الأولى التي طالعتني عن الهند صورة حزينة تعيسة ولم
تكن تبدو لي بالمكان المختار الذي يلهم الشاعر بمثل هذه الأبيات
الساوية ..

وكان اليوم هو اليوم الأول في الاحتفالات الثوية بذكرى طاغور ..
والظاهر أني سرحت طويلا في تساؤلاتي لأن صوت الدليل
« كا كوما » أيقظني وهو يصف قوساً كبيراً أثرياً ويشير بيده إلى نقوش
مكتوبة بلغة سنسكريتيه ..

ولم أكن أسمعه وإنما كنت أصغى بكل حواسي إلى عويل ناي يعزف
عن قرب .

وأيقظ في صوت الناي تلك الوشائج الغامضة التي تضم كل الشرقيين ..
وشعرت كأنما أنا أتقل في وطني . . . وكأنما أستمع إلى أحزاني ..
وكانما هذه الوجوه الدامعة وهذه الأيدي المعروفة التي تمتد لتشخص هي
الأيدي التي أعرفها في الحسين والسيدة وأزقة القاهرة القديمة . .

لم أفق إلا على صوت كا كوما وهو يصيح .

— لقد وصلنا . . هذه هي القلعة . .

ونظرت إلى الأثر الجليل الذي يرتفع أمامي .

هذه إذن هي القلعة الحمراء . .

أخيراً . . أنا في الهند . .

وكنت أتأمل البناء الأسطوري الشامخ وأشعر أنى عدت ألف سنة
إلى الوراء وعلى عتبات البناء كان هناك زحام . . وكانت هناك حلقة من
الهنود حول فقير هندي يجلس في الوسط على ملاءة بيضاء وقد عقد يديه
على صدره ومضى يتختم وقد أغمض عينيه . .

ونظرت إلى دليلي أسأله عما يجري ولكنني فوجئت به يشدني في
الشمزاز . .

— هذه شعوذة . . لقد جاء الوقت لتتخلص من هذه الشعوذة . .

ولكن الفقير الهندي بدأ يرتفع عن الأرض . . بدأ يطير في الهواء
دون أن تمسك به يده وتجمد الدم في عروقي وأسرعت إلى حلقة في
فضول مسحور . .

مددت يدي تحت الرجل وقد خيل إلى أن هناك أعمدة خفية تحمله . .
و لكن لم يكن هناك شيء . .

كان الرجل يفرش الملاءة في الهواء وينام عليها في هدوء وكأنها
بساط سليمان وكأوما مازال يشدني من يدي ليدخل بي القلعة هاتفاً . .

— هذه شعوذة . . شعوذة لا تستحق منك أى اهتمام . .

— ولكنى لا أرى فى الأمر شعوزة : . إن للرجل قدرة خارقة . .
هذه معجزة واضحة لكل ذى عينين . .

— أين المعجزة . . أين القدرة الخارقة . . إذا كان للرجل تلك
القدرة الخارقة فلماذا لا يعمل بها لياكل بدلا من حياة الجوع والمرض
والفقر التى يعيشها . .

— ولكنه يطير . . ألا ترى . . أنه يطير فى الهواء . .

— أن الطائرة تطير أسرع منه . . أننا فى عصر الصواريخ والنفاثات
والأقمار الصناعية . . نه مواصلة متخلفة جداً . .

— ولكنه يأتى بشيء خارق يخالف جميع القوانين . .

وكان الفقير الهندى قد بدأ يهبط بهدوء إلى الأرض وكأنه يهبط بمظلة . .
حتى استقرت ملاءته على الأرض . . وكان ما يزال على حالة مغمض
العينين يتمتم . . بينما راح الدليل يرطم فى ضيق واضح . .

— ألا ترى أنه لو عمل وفقا للقوانين لوصل إلى نتيجة أحسن.
وأضمن . . إن إخوانه الهنود الذين دخلوا كليات الهندسة والطيران
مخترعين أشياء أحسن . . أننا الآن فى عصر العلم . . ولا شيء يؤخر الهند
سوى هؤلاء وذين . . إنه لأمر مخجل . .

مسرعا ليغزو الفضاء ونحن ما زلنا في عصر الحوارة نأكل الثعابين ونمشي
على المسامير ونخطو على الهواء .

— ولكن هذا الفقير عنده من العلم ما يفوق علم كل الذين يبنون
الطائرات والنفاثات . .

— سيدي . . أننا شعب فقير جداً . . وقد رأيت بنفسك القديس
والأقدار والأدران والأوبئة والأراض في كل مكان . . وهذا الإغراق
في الغيبات والغوامض هو الذي قعد بنا طوال هذه القرون . .

— ولكن هذه معجزة . .

— إذا كان الرجل يأتي بالمعجزات فلماذا لم ينقذنا وينقذ نفسه من
المجاعات . . إن أول من يموت في المجاعات هم هؤلاء الفقراء المشعوذين
. . سيدي أنها مأساة . . أنت لاتعرف الهند . . أن المعجزة الحقيقية
هي ما تصنعه الآن . . نحن الآن بصنع الصلب والآلات الحديثة ونعلم
أولادنا في المدارس . . ماذا فعل صاحبك بعد أن أتى بمعجزته . . أنه
يشهد . . انظر أنه يشهد .

وكان الفقير الهندي قد عقد ذراعيه على صدره وراح يتلقى الرويات
التي يلقي بها المتفرجون في حجره دون أن ينطق بحرف . .

وشدني كما كوما من يدي وصعد بي على درج القلعة . . وراح يصف

لى النقوش على السقف والجدران ويتكلم كلاماً كثيراً عن تاريخ القلعة
وعن الذى بناها وعن العصور التى تعاقبت عليها . ولكنى لم أكن أسمع . .
كنت ما زلت أفكر فى الرجل الذى طار . . جلس على ملاءة وعقد يديه
على صدره وأغمض عينيه وطار . . هكذا ببساطة . . بدون مروحة
وبدون موتور وبدون وقود . . بمجرد الإرادة . . بقوة العقل الخالص . .

أى إرادة خارقة نافذة وراء هاتين العينين المغمضتين . .

كان منطق الدليل فى غضبه وثورته يبدو لى شاحباً . . ولم تكن
كل هذه الثورة تعنى لى شيئاً أكثر من غضبة قومية فى غير محلها . .
أنه يتكلم عن العلم . . أى علم ؟! . . وأمامنا علم فوق كل العلوم .
وماذا يضير الفقير فى أنه يشهد . . وما ذنبه فى أن الحظوظ
والأرزاق فى هذه الدنيا موزعة فى ظلم وإجحاف . .

كنت أرى الرجل وقد عقد يديه على صدره وطار . . وطار . .

وأقول لنفسى . . كيف . .

وتسرى فى بدنى الرعدة . .

هل يمكن . . أن يخرق القانون الطبيعى بهذه البساطة . .

أم أنه لا قانون هناك . .

أم أن الإرادة هى القانون الأعلى فوق جميع القوانين . .

ولكني أريد الطيران فلا أستطيع الطيران ، ولا أستطيع أن أرفع
 نفسي إلا قفزاً بقوة العضلات ثم أعود فأقع على الأرض قليل الحيلة مهبط
 الساق . . بينا الرجل يتمدد في الهواء مغمض العينين وكأنه يسبح على
 بحر من الزئبق . .

نه يطير في وضوح النهار . .

عربانا إلا من خرقة لا تكاد تستره ، ممدداً على الهواء كأنه ممدد
 على فراشه . .

لا حيلة هناك ولا شعوذة . .

كيف ؟ . .

كيف ؟ . .

أريد أحداً أسأله وأكله وأناقشه وأفضى له بحيرتي . .

الدليل الذي يراقني يكلمني عن القلعة وعن ماضي الهند المذهل . .
 وكما عدت إلى الموضوع أشاح يديه . .

مالي أنا وهذه الحجارة إذا كانت من رخام أو من مرمر . .

هذه القلعة رفعها إنسان بالجهد الجهد والعناء والعرق . .

ولكن هناك إنسان رفع نفسه . . تمدد على الأرض وطار . . دون
 أن يبذل جهداً . . ودون أن تنقبض له عضلة . . استرخى في اطمئنان
 كأنه لا يفعل شيئاً . .

ثم فعل مستحيلا . .

طول الوقت وأنا أصد درجات القلعة . . وأنا أدور في شرفاتها . .

وأنا أعود في طريق عبر الشوارع الضيقة المليئة بالحفر . .

وأنا أدخل نيودلهي . .

وأنا أصل إلى فندق أشوكا حيث أنزل مع الوفد الذي أراققه . .

وأنا أتناول عشاءي . .

وأنا أضع رأسي على فراشي لأنام . .

وأنا مطارد برؤيا لا تفارقني . .

رؤيا رجل تمدد على الأرض وأغمض عينيه في استرخاء وطار . .

هل كنت أحلم . .

لا . . أنا عائد لتوي من رحلة نهار شاقة . . أنا يقظان . . حواسي

كلها حاضرة . .

لم أستطع النوم . .

قمت من قراشي وفتحت النافذة . .

وقفت أتشمع هواء نوفمبر . . الرقيق . . فكرت طويلا . .

كل ماقرآت من علوم لم يسعني . .

عملى كفتش آثار ودارس للغة المصرية القديمة ..

كنت قد بدأت أكتب الأوراق الأولى فى رسالة دكتوراه فى اللغة
الهيروغليفية ..

كل هذا لاشيء ..

أنا لا أفهم شيئاً ..

لقد عشت طول حياتى جاهلاً ..

ارتديت ثيابى ونزلت بهو الفندق ..

كانت الساعة متأخرة من الليل وكان البهو خالياً .. إلا من شبح
واحد يجلس فى ركن يشرب ..

أنه صديقنا أمرى خان المرافق لوفدنا (يبدو أن اسمه محرف من
عمرو خان) .. وشعرت بالراحة وأنا أتطلع إلى وجهه الرقيق المثقف ..

أخيراً وجدت من يستمع إلى ويفهمنى ..

وكان الرجل ينظر إلى بابتسامة تتسع فى ترحيب كلما اقتربت منه ..
مد يديه مرحباً وقال :

— أرجو أن تكون مستريحاً فى الفندق .. يبدو أنك لم تستطع
النوم .. هل الجو يضايقك .. إن شهر نوفمبر ألطف الشهور جواً عندنا ..

— أنه ليس شيئاً خاصاً بالنوم أو الحر أو الفندق .. أبى .. أبى

لا أعرف ماذا أقول . . لقد شاهدت شيئاً حيرنى . . لقد كنت اليوم فى القلعة الحمراء . .

ورأيتہ يتنسم ويردف مقاطعاً فى أدب . .

— أنه الفقير « براها واجيسوارا » . . أنا أعرف . .

— أنك لن تقول أنه مشعوذ كما قال الدليل . . لقد رأيتہ بعينى

هاتين . .

— لا أنه ليس مشعوذاً . . أن بعض الشباب العصرى عندنا أصبح

يكره هؤلاء الفقراء لأنهم ينشرون حولهم جواً من الإيمان بالروحية . .

وهم يشكلون فيما بينهم جمعيات لمحاربتهم . . وأنت تعرف أن مهاتما غاندى

قتل بيد واحد من هؤلاء المتعصبين . . ولا بد أن دليلك كان من هؤلاء

الشبان . . أنها القصة المعادة . . قصة الصراع بين الجديد والقديم . .

— ولكن هل يمكن . . هل يمكن أن يفعلها . . أن يتمدد على

الأرض ويطير . . لقد رأيتہ بعينى أنها لا يمكن أن تكون خدعة . .

— أنها ليست خدعة أنا أعرف براها واجيسوارا . . وهو صديقى

. . لقد رأيتہ يدفن نفسه حياً ويعيش تحت التراب أياماً . . ورأيتہ يتحكم

فى نبضات قلبه فيخفض سرعتها إلى ثلاثين نبضة فى الدقيقة ويرتفع بها إلى

مائة بمجرد الإرادة . . ورأيتہ يتحكم فى تمدد شرايينه وانبساطها فيمد لك

يده فاذا هى حمراء محتقنة ويمد لك الأخرى فاذا هى صفراء غاض منها

الدم . . أنه رجل عجيب . . عنده هبات غير طبيعية . . وهذا كل ما يمكن قوله . .

— ولكن كيف . . كيف

— هناك أشياء لا نعرفها ويبدو أن عقولنا تملك قوى ذاتية تستطيع أن تؤثر بها في الأشياء من غير طريق الجسد والحواس . . لقد اكتشفنا قوة البخار والكهرباء والذرة ولكنى أعتقد أننا يوماً ما سوف نضيف مصدراً آخر خطيراً للقوة . . هي قوة العقل نفسه . .

— تقصد الروح . .

— لا أدري . . سمها الروح أو العقل أو النفس . . أنها كلمات تؤدي إلى الكثير من الخلط . .

— قل لي بصراحة هل تعتقد ببقاء الإنسان بعد موته . .

— إذا كانت الشمعة حينما تنطفئ يظل نورها يرتحل ملايين السنين في الفضاء حيث يمكن أن يلتقط ويشاهد . . وهذا شأن شمعة . . فما بالك بالإنسان تنطفئ حياته . . كيف تستبعد أن يكون له بقاء بعد موته . . انظر إلى السماء ترى بين النجوم اللوامع نجوماً تتألق يقول لك الفلكيون أن نورها انطلقاً من ملايين السنين . . وهذا شأن المادة باقية أبداً . . تتحول وتتحول ولكنها لا تفتنى . . فما بالك بالإنسان وهو أرقى مادة في الوجود . .

ثم تعال لنفكر معاً . . ما المادة التي يطنطن بها الماديون . . أنها لم تعد في ضوء العلم المادة الصلبة التي نعرفها وإنما تبخرت إلى خلاء منشورة فيه ذرات . . والذرات قال لنا العلم أيضاً أنها خلاء منشورة فيه إلكترونات تدور حول أنويه من البروتونات . . وما الإلكترونات والبروتونات في النهاية إلا شحنات كهربائية . . أي طاقة . . مجرد طاقة . . إذن فالمادة طاقة . . نشاط . . مجرد نشاط موجي . . مجرد حادثة تجري في الفضاء المطلق . .

وتوقف امرى خان ليرتشف رشفة من كأسه ثم صفق للجرسون ليطالب لي كأساً . . ولكنى طلبت كوباً من عصير الليمون . . كنت أريد أن أحتفظ بعقلي يقظاً متفتحاً لكل كلمة يقولها . . وأردف امرى خان وهو يصب لنفسه كأساً ثانية . .

— إذا كنت قرأت النسبية فأنت تعرف أن اينشتين قال إن كل جسم له مجال حوله وأن هناك بعداً رابعاً غير مرئي للمادة هو الزمن نعرفه بالحدس والتخمين وتقصر حواسنا المباشرة عن إدراكه . . فلماذا تعجب إذا قال لك علماء الروح إن الجسم الإنساني له مجال مغناطيسى حوله وأن الروح تعيش في العالم الرباعى الأبعاد وتدركه . . وأنها ذات طبيعة موجية تمكنها من اختراق الحجب . . وأنها حادثة من الحوادث التي تجري فينا و حولنا في الفضاء المطلق . .

أنا نرى الأشعة البنفسجية ولا نرى الأشعة فوق البنفسجية لأن
أمواجها أقصر وذبذبتها أسرع . وعلم الطبيعة يقول لنا إنه كما كانت
الذبذبة أسرع والموجة أقصر فإنها تكون أكثر تقيظاً واختراقاً للمواد
وأكثر خفاء على الحواس . . وما الأرواح إلا هذه المخلوقات الموجية
ذات الذبذبة العالية فهي تخترقنا وهي فينا وهي حولنا ونحن
لا نسمعها ولا نراها . .

وليس هناك ما يدعوننا لأن نتصور أنه لا توجد بين أطوال الأمواج
والذبذبات إلا الأمواج والذبذبات التي أدركناها بمقاييسنا . . والطبيعي
أن نتصور أن هناك مراتب ودرجات من الذبذبة لا نهاية لها . .

والسببية تقول لنا إننا لو سرنا بسرعة الضوء لرأينا شعاع الضوء الذي
يسير بجانبنا له ملمس ومظهر المادة الصلبة وكأنه قضيب من حديد . .

وربما لو سرنا بهذه السرعة لرأينا الأرواح أجساماً مثاقلة ملموسة
كأجسامنا . .

أن ما يظهر لنا من أمر هذا الكون يتوقف على الموقف النسبي
الذي نلاحظ منه الأشياء والحقيقة يمكن أن تتخذ ألف شكل لأعيننا إذا
اتخذنا ألف موقف نلاحظها منه . . نقطة الماء إذا نظرنا إليها بالعين غير
نقطة الماء إذا نظرنا إليها بالميكروسكوب غير نقطة الماء إذا نظرنا إلى
بخارها بالاسبكتروسكوب . .

أن شهادة الحواس سوف تظل تنقل لنا مراتب مختلفة من الحقيقة
كلها نسبية بحسب الظروف التي نشاهدها فيها ..

وسكنت أمرى خان هذه المرة طويلاً وراح يهز الكأس بما فيه من
قطع الثلج العائمة ..

وكنت أنا طول الوقت مشغولاً بكل كلمة قالها ..

ثم قطع الصمت قائلاً :

— ألا تواقنى أن هناك أشياء كثيرة لا نعرفها في هذه الدنيا ..

— أنت محق ..

— أنت كعالم آثار مصرى عشت في القرون البائدة وعاشت
أقواماً ونظماً وعصوراً عفا عليها التاريخ .. ألم تشعر مرة وأنت تقرأ
مخطوطاً من البردى أنك تلمس حقيقة إنسانية مازالت تتنفس حولك ..
ألم يعتقد قدماء المصريين في البعث بعد الموت ..

— نعم لقد اعتقدوا بالاله الواحد وبالروح والبعث ..

— دون أن ينزل عليهم دين ..

— نعم ..

— وكان هذا حال أكثر الأمم بدائية وأكثر الأمم حضارة ..



وكأنما الروح والخلود بديهية لا تحتاج إلى أعمال عقل .. ألا تبدو هذه
الحقيقة غريبة ..

وقد كانت تبدو هذه الحقيقة غريبة بالفعل .

وسقط بيننا حاجز الصمت من جديد ..

ولكننا كنا أشد مانكون تعاطفاً واتصالاً في صمتنا وكأننا
نتخاطب كلانا بلغة مهموسة .. ومر وقت لم تكن تسمع فيه إلا
خشخشة النسيم في الحديقة وطققة الثلج في كأس أمرى خان .

وكانت هناك فكرة تشغلى وتلح على طول الوقت ..

قلت لصديقي ..

— كلامك عن الروح وإن دل على أنك تؤمن بوجودها إلا أنه
يدل أيضاً .. وهذا عجيب .. على أنك لا تؤمن بالروحية على الإطلاق ..

— لا أفهم ماذا تعنى ..

— كلامك عن الروح بأنها أمواج على درجة عالية من الذبذبة معناه
أنك تعتقد أن الروح مادة ولكنها مادة أكثر لطفاً وشفافية من مادتنا
.. فأنت إذن لست من أنصار الروحية .. وما تقول به هو لون من
المادية .. لنسمها المادية الجديدة ..

وابتسم امرى خان حتى بدت أسنانه البيضاء ثم ضحك قائلاً :

— ألم أقل لك إن المعركة تدور وتدور ثم تنتهى إلى مجرد خلاقات
اسمية . . . لن أخيب أملك . . . وان أدور بك في جدل بيزنطى . . . إعتبرنى
صاحب نظرية في المادية الجديدة . . . مادية رجبت حتى اتسعت لعانى الروح
والجسد . . . سيدى فى صحتك . . .

ورفع كأسه مردفاً :

— لن تتعارك على مجرد خلاقات اسمية . . .

وشعرت فى تلك اللحظة أنه يحدث جذاب حقاً وأنى لم أنكبذ مشقة
السفر إلى الهند عبثاً . . . فها هنا صديق نادر سوف أستمتع بمراقفته طول
الرحلة . . .

وصارحته بإعجابى فأحمر وجهه تواضعاً ولم يرد . . .

قلت له :

— إن أملى الوحيد فى بلدك أن تعرفنى على صديقك الفقير « براها
واجيسوارا » . . .

— هذا أمل بسيط . . . اعتبر طلبك مجاباً . . . غداً بعد الاحتفالات
نلتقى بالبراهما واجيسوارا .

— لاشان لى بالاحتفالات . . لقد جئت من بلدى طالباً الجلوس
 بين يدي البراهما . . أنه كل شغلى وشاغلى من اليوم . .
 ورأيتہ يتسم ابتسامته الواضحة ويقوم محياً . .

— لك ماتشاء . . أرجو أن تنام جيداً الليلة لتتحمل أعصابك
 ماسوف تراه غداً في حضرة البراهما . . ولقاؤنا غداً في الصباح الباكر . .
 وضم كفيه ورفعهما إلى أعلى جبهته علامة وداع . .
 واقترقنا ..

في طريقنا إلى براهما واجيسوارا كان أمرى خان يحدثنى عن تاريخ حياة البراهما ويروى لى طفولته المترفة والقصر الكبير الذى كان يعيش فيه فى كلكتا وكيف تلقى تعليمه فى إنجلترا جنباً إلى جنب مع أولاد الملوك والأمراء .. وكيف عاد إلى الهند ليخلع بذلته الأنيقة ويهجر بيته وزوجته ويهيم فى الجبال والغابات حافياً عارياً لا تستر جسده إلا خرقة .

— أن براهما واجيسوارا ليس شحاذاً جاهلاً كما صور لك ذلك أنه خريج أو كسفورد ويتحدث الإنجليزية بطلاقة ويحيط بالفلسفة الغربية وآدابها إحاطة متخصص وهو عضو فى جمعية مارلبورن الروحية بلندن وله رسالة قيمة فى الرياضيات العليا .

— ولكنها نهاية عجيبة تلك التى وصل إليها البراهما بعد طول دراسته وتفلسفه . .

— أنه الآن يعيش فى كهف بالجبل وحيداً يصلى طول النهار وفى وقت الظهيرة ينزل إلى الساحة أمام القلعة الحمراء ليطلع الناس على الحقيقة . .

— وأى حقيقة ؟ ..

— لقد دفع ثمناً كبيراً في سبيل الوصول إلى هذه الحقيقة .. حتى الاحترام لم يحصل عليه .. فها هو أحد مواطنيه ينظر إليه شذراً كما ينظر إلى حشرة عالقة بسترته ..

— يبدو لي أنه لم يعد يهتم بهذا الاحترام التقليدي وأنه يتطلع إلى مثل أخرى غير المثل التي تتطلع إليها في حياتنا العادية .

— أن كل ما يطلبه من الدنيا هو خبزه كفافه .. وأن يوصل كلمته إلى الدنيا ويمضي .

وأثناء صعودنا الجبل كان يمر بنا أفراد طائفة السيخ بشعورهم المرسلة وعربات الركشا يجرها فقراء الهنود .. والثيران والجواميس في أعناقها الأجراس .. والأطفال عرايا يستحمون في الحفر التي ملامها للطر ..

وكان هواء الجبل يرق ويشف كما صعدنا وتقل ما فيه من رطوبة .. ويعبق بروائح الأزهار .

وكانت الطيور الملونة ترفرف فوق رؤوسنا من كل جنس .. والقروود تقفز طليقة على الأشجار وتتخاطف ثمار الجوز ..

وكانت في الطبيعة بكاره وعذرية تهز القلب ..

وأمام فوهة كهف تدلت عليه تعاريش الأشجار توقف صديقي مشيراً :

— هنا يسكن براهما واجيسوارا ..

وتطابت العصافير ترقزق ونحن نزع التعاريش الكثيفة ونحس
طريقنا إلى الداخل .

وعلى بعد خطوات أمامنا كان يجلس البراهما عيناه مغمضتان ويداه
معقودتان على صدره وشفاه تسمان بصلاة خافتة .

وفتح عينيه ببطء حينما اقتربنا منه .

وضم أمرى خان كفيه ورفعهما إلى أعلى في تحية سلام وقدم
هامساً :

صديقي الدكتور توفيق من القاهرة ..

ورفع البراهما كفيه مضمومتين إلى أعلى يحينى هامساً بالجليزية
سليمة :

— مرحباً بك في بلادنا ..

وخاب البراهما لحظة في داخل كهفه ثم عاد يحمل على يديه ورقة
خضراء من أوراق اللوز عليها بندق ولوز وحمص قدمها إلى ..

— تفضل .. أرجو أن تكون بلادنا قد أعجبتك ..

— إن أروع ما في الهند هو براهاوا جيسوارا

— عفواً لعلك تقصد أتعس ما في الهند .. لقد بدأت من أسفل

السلم .. وهذا طبيعي على أى حال ..

— بل بدأت من أعلى السلم . .

— هذا اطراء لا فهم له مبرراً . .

وكان البندق مملحاً وعليه شطة وبدأت أشرق وأسعل وأعاني من

عطش شديد ، وقال البراهما وهو يقودنى من يدى :

— هنا بئر قرية . . مياهها عذبة باردة شافية . . دعنى أساعدك ..

وغاب في الداخل لحظة وعاد يحمل جرة ليملاءها . . وخرجنا نحن

الثلاثة إلى ناحية البئر . .

وكانت بئراً عميقة تنحدر إليها المياه في جداول رفيعة من السيول التي

تهبط على قمة الجبل . . وكانت للبئر سلام تهبط إلى القاع درجاتها منحوتة

في الصخر . .

وكانت البئر مليئة لحاقتها من السيول التي تزلت منذ أيام . . وكانت

مياهها شفافة تكشف عن قاع بعيد غائر مرصع بالحصى . .

ورأيت البراهما يحمل الجرة وينزل درجة درجة في هدوء وهو يقول

إن مياه القاع هي أطهر ما في البئر لأنها بعيدة عن الحشرات والهوام

ولا يردّها الضباع وأنه سيملاء لي الجرة من ماء القاع . . وكان طول الوقت ينزل في هدوء درجة درجة حتى غمر الماء صدره ثم عنقه ثم رأسه ثم غطاء تماماً وهو مازال ينزل في هدوء وكأنه ينزل في بدروم نادى ليلى .
هل جن الرجل ؟

وأمسكت بصديقي أهتف به .. البراهما غرق .. البراهما أغرق نفسه في البئر . .

وكان صديقي ينظر إلى في هدوء ويتسم . . وأنا أصرخ :
— كيف تقف ما كنا هكذا لاتفعل شيئاً والرجل يغرق . .
وأمرى خان يجيب في هدوء وهو يشير إلى البئر . .
— انظر أنه لا يغرق . . أنه مازال يهبط في هدوء تحت الماء نازلاً إلى القاع . . أنه يعرف طريقه جيداً كأنه في بيته . .
ونظرت إلى البئر . .

كان البراهما مازال ينزل درجة درجة في هدوء . . حتى بلغ القاع جلس القرفصاء في هدوء وأغمض عينيه وأغرق في الصلاة ونسى كل شيء . . ثم سكنت حركته تماماً وصرخت :

— البراهما مات . . غرق . . اختنق . . لماذا تحمق هكذا ولا تفعل شيئاً ..

وأجاب أمرى خان في هدوء وهو يحمق في البئر وينظر إلى ساعته

— البراهما يصلى بقلبه .. هذه عادته دائماً .. يصلى فى كل مكان
تحت الماء وفوق الأرض وفوق الهواء ..

— ولكن هذا مستحيل .. أنه رجل أخرق .. أنه يفتنق هكذا
فى ثوان وهو تحت الماء حيث لا يوجد أكسيجين يتنفسه .. أن الجسم
لا يستطيع أن يعيش بدون أكسيجين إلا ثوان معدودة .. هذه
قوانين بيولوجية ..

— هذه قوانينك وقوانيني نحن الذين مازلنا فى أولى ابتدائى فى
مدرسة الأسرار .. انظر إلى ساعتك وستعلم كم سيقتى البراهما تحت الماء
بدون أكسيجين ..

ونظرت إلى ساعتى فى رعب .. كانت قد مرت دقيقتان منذ هبوطه
تحت الماء وكان عقرب الدقائق يمشى ببطء ويزحف زحفاً على اللينا
البيضاء .. وكنت أرتجف من الخوف وقد تشاجبت أطرافى .. خمس
دقائق .. عشر دقائق .. وهمس أمرى خان ..

— نستطيع أن نجلس فلسنا فى عجلة من أمرنا .. ومثل هذه
الصلوات تطول عادة ..

وشدنى من ذراعى وأجلسنى بجواره على حافة البئر وهمس عاتباً
حيناً رأتى أرتجف :

— ألم أقل لك يجب أن تنام جيداً حتى تكون في حالة عصبية مناسبة ..

— أن ما أراه هو الجنون بعينه ..

— أن ماتراه هي معجزة العقل وليست معجزة الجنون .. أنك ترى قدرة العقل الفائقة على إيقاف كل عمليات الحياة والسيطرة عليها وإبطائها بالإرادة ..

— ولكن كيف يتنفس .. لقد مضت خمس عشرة دقيقة .. أنه لا يمكن أن يكون حياً .. هذه جريمة انتحار .. لا بد من عمل شيء ..

— فكر قليلاً بدلاً من هذا القلق الذي لا جدوى منه .. حينما تبطئ جميع عمليات الحياة البيولوجية فإنها لا تحتاج من الأكسجين إلا قدرأ يسيراً تافهاً .. أقل مما تحتاجه سمكة .. وهو يحصل الآن على هذه الكمية من الأكسجين الذائب في الماء ويمتصها عن طريق جلده .. مثل جنين في بطن أمه .

— هذه جريمة انتحار .. أنت تهذى ..

ونظرت إلى الساعة واستبدت بي الفزع ..

ولم يجد أمرى خان بدأ من إمساكي وتقييد حركتي حتى لا أرتكب حماقة على حد قوله ..

ومضى الوقت رهيباً ..

وهمست وأنا مقيد بذراعي صديقي القويتين

— إذا مات سوف أسلمك للبوليس . . أنت الذى قتلته . . أنت

مستول . .

وممعت صديقي يضحك وينظر فى ساعته هاتفياً . [

— ٤٥ دقيقة . . انظر . .

ونظرت إلى البئر ورأيت البراهما يتحرك ببطء صاعداً البئر درجة

درجة وفى يده الجرة . .

وحينما أخرج رأسه من تحت الماء أخذ نمنساً طويلاً عميقاً وناولنى

الجرة وهو يهمس :

— هذه المياه شافية للامعاء والسكبه . . خذ منها جرعة وافية . .

وكنت أنظر إليه وأتمسسه وأنا غير مضدق

كيف . . كيف . .

أخذت يديه أقبلهما أولكنه معجبهما بشدة واكتسى خناه بحمرة

الحجل . .

— خذ جرعة من هذه المياه . .

— ولكن ياسيدى كيف . . كيف . . كيف فعلت هذا . .

— وهل فعلت شيئاً غريباً . .



— لقد حطمت جميع القوانين . .

— أنا لم أحطم شيئاً . . لا أحد يستطيع أن يحطم قانوناً . . أن
مافعلته كان وفاقاً للقانون . .

— أى قانون . .

— القانون الأعلى . . حينما تصعد العصاراة في النخلة إلى أعلى ضد
قانون الجاذبية لعشرات الأقدام في الهواء . . هل يقول أحد إن النخلة
حطمت قانون الجاذبية . . أم هم يقولون في علم النبات إنها صعدت وفاقاً
لقانون أعلى من قانون الجاذبية . .

— أنهم يقولون إنها صعدت وفاقاً لقانون الحياة . .

— وهو أعلى من قانون الجاذبية . . وقانون العقل أعلى من الاثنين
وقانون الإرادة أعلى من الكل . . لقد قمت بإثبات تفاضل القوانين
بتجربة متواضعة أمامك . . هل قرأت عن تفاضل القوانين في الرياضة . .

— لا . . لم أقرأ . .

— أنك لم تدرس بما فيه الكفاية . . وهذا كل ما في الأمر . .
خذ جرعة طيبة من هذه المياه . .

وناولني الجرة . . فأخذتها وأنا غير مصدق . . ولمستها وكأني المس
شبعاً . . وشربت حتى ارتويت . .

وكانت السحب السوداء قد بدأت تتجمع فوق الجبل ثم انفتحت فجأة كأنها قرب ونزلت ميولا كاسحة ..

ورأيت البراهما يرسم الصليب على صدره ويتعمم بآية من الإنجيل ثم يتعمم بآية من القرآن ثم يقرأ آية من المزمور الخامس ثم يقرأ من كتاب الدامابادا (كتاب الطريق لبوذا) .. ثم يهمس وهو ينظر إلى السيول التي تجرف الأكواخ الصغيرة في طريقها ..

— هناك أطفال يموتون الآن .. علينا أن نزل لنساعد من هم في حاجة إلينا ..

ونزلنا هابطين الجبل .. وبدأ السيل يخف تدريجياً حتى توقف تماماً حينما بلغنا أقدام الجبل ..

وسطعت الشمس براقه حامية ..

ونظرت في دهشة إلى الرجل العجيب الذي يحفظ جميع الكتب السماوية .. ويرتل آيات من جميع الأديان ويحيط بالرياضة والعلوم والفلسفة واللغات ..

أى رجل هو .. ؟ ! !

وعلى أى دين ؟ ! !

ومن أى ملة ؟ !

وعند أقدام الجبل صادفنا الدليل كما كوما مع بعض من أعضاء الوفود
في جولة سياحية .. وحينما رأني في صحبة البراهما وقف يرطم ويشير
نحونا في سخرية ..

ورأيت البراهما يضعك ويهمس مشيراً ناحية الرجل ..

— انظر إلى الظل الذي يلقى الرجل على الأرض ..

ونظرت ناحية كما كوما فرأيتَه يلقي على الأرض ظل حمار .. بأذنين
طويلتين مشرعتين ورأس مستطيلة وخشم غليظ ..
ولم أملك نفسي من الضحك عالياً ..

والتفت نحوى أمرى خان وضغط على ذراعى هامساً :

— يكفيك مارأيت لرحلة اليوم .. لقد اقترب وقت الغذاء ولا أظن

أنك ستأكل من طعام البراهما ..

— ولم لا ..

فضحك أمرى خان ..

— إن البراهما لا يأكل شيئاً .. إنه يتغذى بنفس الطريقة التي

يتنفس بها تحت الماء ..

— ياساتر ..

— أظن أنك لم ترتفع بعد إلى مستوى هذا اللون من الغذاء ..

— إلى هنا وأعترف أنى مازلت حيوانا وأقل من الحيوان مباحة
الغذاء ..

— إذن تعال معى إلى حيث يأكل الحيوانات أمثالنا ..

وهكذا استأذنا من البراهما وانصرفنا بعد أن ضم كل منا كفيه إلى
أطى في تحية وإجلال واحترام وأخذنى أمرى خان تحت فراغه قائلا إنه
سيطعمنى « التندورى » ..

— وما هو التندورى ..

— سوف تعرف ما هو التندورى حينما نصل إلى « موتى محل »
أشهر مطعم شعبي في الهند ..

ولكنى كنت مازلت أفكر فى الرجل الذى أغلق عينيه تحت الماء
ونام .. الرجل الذى يحفظ جميع الكتب السهاوية ويؤمن بجميع
الأديان ويصلى بجميع اللغات .. ويتمدد على الأرض إذا شاء ثم يطير ..

ألا يكون كل هذا حلم ..

ألا تكون كل هذه الرحلة إلى الهند أضغاث أحلام ..

ولكنى سوف آكل التندورى ..

وفى مطعم « موتى محل » قدموا لنا « التندورى » وهى دجاجة
كاملة مشوية ومصبوغة بلون أحمر فاقع .. ومعها طبق من الشارى ..

وطبق آخر اسمه التايوكا (طعام يشبه البطاطا) مع أطباق عديدة من الموز
المجفف والمانجو والمخلل والملح .. واكواب من عصير اللبوم المزوج
بالشطة .. وسلطات من كل لون .

وكانت أكلة حامية ملتبهة لاسعة لكثرة ما فيها من بهارات حريفة ..
ولكن ما بعقلى من أسئلة محيرة كانت تلسعنى أكثر ..

— هل أحببت الأكلة الهندية ..

سألنى صديقى وهو يأكل الدجاجة يديه ..

— لأفهم لماذا تضعون الشطة فى كل طبق وفى كل صنف من الطعام ..

— لولم تفعل هذا لنامت أعمارنا من شدة السكىل والحر إن الشطة
عندنا قانون نيولوجى .. أعتقد أنه القانون الوحيد الذى لم يستطع صديقنا
البراهما أن يغلو عليه ..

— بينى وبينك أنا أحيانا لا أصدق ما يأتى به ذلك البراهما من أفعال
هذا غير معقول .

— ما هو الغير معقول ..

— كل ما شاهدته اليوم والأمس غير مه

أنى أحيانا أصدق كما كوما .. تصور انه يجعل كما كوما يلقى على الأرض
ظلا يشبه ظل الجمار ..

— لأن كا كوما بالفعل حمار .. هل تعتقد في تناسخ الأرواح ..
أنا أعتقد أن هذا السكا كوما قد حلت فيه روح حمار ..

— ولكن رأى كا كوما يرمحنى .. الاعتقاد بأن البراهما ساحر
مشعوذ دجال هو رأى مريح جداً .. أما الإيمان بالخوارق التي يأتي بها
فإنه يؤدي إلى الجناب والجنون .. نعم سوف يصيبني هذا الرجل بالجناب
من طول التفكير فيما يفعله .. أو كد لك أن كا كوما على حق ..

— أنت تريد أن تستريح وحسب .. لا تريد أن تواجه الحقيقة
بأى ثمن ..

— أن الثمن لن يكون أقل من الجنون . هذا الرجل يثير مشكلة
أكبر من عقلى .. أكبر من قدرتى ..

— الظاهر أن الشطة كانت أكثر من اللازم .. وأنها تسربت
إلى دمك .. وإلى مخك .. أنت في حاجة إلى ملطف ..

وصفق أمرى خان للجرسون وكله بالهندية .. فغاب الجرسون لحظة
وعاد يحمل صينية عليها عدة أطباق صغيرة بها ينسون وحبهان ومستكة
وكمون وسكر نبات ..

وأشار على أمرى خان بأن أمضغ من هذه الأصناف ما أستطيع قاتلا
إنها مهدئة ملطفة ومهضمة ..

— اللهم ليس ما أستطيع ولكن ما أستطيع ..

ولم ينتظر أمرى خان أن أختار ما أستطيع وما أستطيع وإنما ملاء
 حفاته من كل صنف وعبأ لى جيوبى . . قاتلا إنى سوف أحتاج إلى هذه
 العطارة الشافية . . وأنى لا أعرف الهند ولا أعرف ماذا يفعلها الطعام
 الهندى فى البطون .

وغادرنا للطعم . .

ولاحظت أن الهندود يقفون على محطات الأتوبيسات فى طوائير منظمة
 وكانت هذه الظاهرة فريدة فى نوعها وغير مفهومة بالنسبة إلى كثرة
 مظاهر القوضى الأخرى فى الحياة اليومية فى الهند . .

وركبنا أول تاكسى . .

وانطلق بنا مسرعاً إلى الفندق يحترق الشوارع الضيقة والأزقة التى
 يتكدس فيها الزحام فى مهارة غير عادية . .

وقال لى أمرى خان إن عدد سكان الهند أكثر من ربعائة مليون
 والسبب أن أغلب السكان ينامون مع غروب الشمس ولا ينجدون إلا لعبة
 واحدة يلعبونها وهى لعبة النسل . . وأن الهندى الفقير لا يفهم ما معنى
 تحديد النسل فليس عنده شىء آخر يفعله . . وهو يعتمد على النسيول
 والمجاعات والأوبئة فى تأدية مهمة تحديد النسل بحماس ونشاط أكثر منه . .

ومكت أمرى خان فجأة وغمزنى قاتلا وهو يشير أمامه إلى بقرة فى

الطريق . .

— أنظر ماذا سيفعل سائق التاكسي حينما يقترب من البقرة ..
وما فعله سائق التاكسي كان شيئاً غريباً بالفعل .. فقد أبطأ العربة
ثم أوقفها وفتح بابها ونزل ليقف في إجلال وتوقير انتظاراً لمرور البقرة ..
وهو ما لم يفعله لأي بشر ..

وظل واقفاً في خشية وبتل حتى مرت البقرة متهادية في دلال
وابتعدت عن الطريق ثم عاد إلى كرسيه أمام عجلة القيادة واستأنف
رحلته ..

وهمس أمرى خان ..

إن البقرة عندنا كائن مقدس إلهي ..

كنت أذرع غرفتي في الفندق ذهاباً وجيئة ، وقد استغرقت في
تفكير شديد والساعة تدق نصف الليل حيناً طرق الباب ودخل أمرى
خان سائلاً في قلق :

— هل أرسلت في طلبى ؟

وشعرت بالدهشة فقد كنت أفكر فيه طول الوقت . . . وكنت على
وشك أن أرسل في طلبه .

وصارحته بالحقيقة فابتسم :

— هذا معناه أن هناك اتصال أفكار بيننا . . . لقد أصبحت وسيطاً
روحياً بعد خمسة أيام من قدومك إلى الهند . . . هذا تقدم محمد عليه .
وضعت . . .

— وسيطاً روحياً . . . هل تعتقد في هذا الكلام الفارع . . . إن

هؤلاء الوسطاء يسمونهم في بلادنا المشايخ وأهل الله . . ونصنفهم دجالون
وأصحاب سوابق .

— حسناً . . اعتبر نفسك واحداً من أهل الله

— ومن أصحاب السوابق الذين لم يقبض عليهم بعد اليس كذلك . .

— إن اكتشاف عشرة أطباء دجالين لا يعنى أن المهنة كلها دجل .

— هل تريد أن تقول لى إنك تعتقد فى خرافة الوسطاء أيضاً .

— ولم لا . . إن هناك ظواهر فى حاجة إلى تفسير . . والوساطة هى

تفسيرها الوحيد . . فلماذا لا يكون تفسيراً مقبولاً . . هل تستطيع أن
تفسر لى اتصالنا الفكرى منذ لحظات .

— الصدقة . . مجرد الصدقة

— هذا يعنى أنك تعتبر ما حدث دالاً على لا شئ . . مجرد صدقة . .

— نعم

— ولكن من الملاحظ أن هذه الصدقة تتكرر كثيراً فى حياتنا

بدرجة ينفىها قانون الصدقة نفسه . . وأنت تعرف أن علم النفس اعترف

بهذه الظاهرة وأدخلها فى عداد ظواهره العلمية تحت اسم «التليياتى» . .

— إن علم النفس أصبح يدعى أشياء كثيرة هذه الأيام . .

— هل تسمح لي بأن أدخن غليونى . .

وأخرج غليوناً فاخراً أشعله .

— أن مبرة الغليون أن دخانه يطرد البعوض . . نستطيع أن نفتح
النافذة الآن فلا خوف من دخول البعوض فى مثل هذا الظلام . . . ومثل
هذه اللدخنة . . . مشتعلة .

وقدح النافذة وتدفق نور القمر

كان القمر بدرأ . . .

وانسكأ أمرى خان على النافذة ومضى يدخن فى شراهة . . ثم قال
بمد فقرة صمت :

— منذ خمس سنوات كنت فى إنجلترا مع البراهما واجيسوارا . . .
واقترح على البراهما أن نحضر جلسة روحية للوسيطه مسز ما كزى فى
جمعية مارلبورن بلندن فوافقت من باب الفضول فأنا مثلك لا أو من بشىء
خارج دائرة حواسى المباشرة . . .

وبدأت الجلسة باطفاء الأنوار وتلاوة بعض الأناشيد الدينية وعزف
الأرغن ثم سمعت صوت مسز ما كزى واضحاً . . « إلى السيد أمرى
خان الذى يجلس فى الصف الأول . . هناك رسالة لك من والدك الميت » . .

فوقفت مندهشاً بينما كانت السيدة تكتب ما أتليه عليها الروح
بالكتابة التلقائية .

وعندما أضئت الأنوار . . وطالعت الرسالة لاحظت أنها مكتوبة
باللغة السنسكريتية . . وأن إمضاء والدي عليها واضح لا شك فيه . . وكان
مضمون الرسالة باختصار أنه سعيد في العالم الذي يعيش فيه وأنه يصلح من
أجلنا . .

وعندما أطفئت الأنوار من جديد . . قالت الوسيطة . . إن روح
السيد الوالد ما زالت حاضرة وهي تسألك إن كنت تريد شيئاً . . فقلت
لها : أريد أن تصف لي بالتفصيل العالم الذي تعيش فيه . . وبعد فترة
صمت . . بدأت روح والدي تلقي وصفاً تفصيلاً عن العالم الآخر .

واهدلت في مكاني

وقلت في فضول وقد أثارني القصة .

— حقاً . . إنه شيء ظريف . . أني لمشوق جداً إلى معرفة هذا

العالم .

— والغريب أن وصف الروح كان أقرب للوصف العلمي . .

— إن هذا يزيد فضولي . .

— قالت الروح إن العالم الآخر ليس له موقع جغرافي وإنما هو فينا
وحولنا . فهو ليس مكاناً . . وإنما هو حالة تختلف فيها درجة الذبذبة . .

— غريب أن والدك هو الآخر يتكلم بلغة الذبذبات .

— لقد كان أستاذاً في الطبيعيات في كلية دلهي .

— هذا حسن . . أن وصفه سيكون دقيقاً ولا شك . .

— قال إن عالم الآخرة شبيه بالدنيا ولكنه ألطف وأكثر بهاء
وتقاء وبألقاً . . في الآخرة أرض وسماء وأنهار وأشجار ومبان ومدن
وفيها فاكهة وطعام وفيها مدارس ومعاهد ومسارح وموسيقى وفنون . .
والإنسان فيها لا يبني بيوتاً بمواد الأسمنت والطوب والحجارة وإنما هو
يبنى بقله وخياله وإرادته الخالقة . . يتمنى فتتحقق أمنياته بدون مادة
وبدون أدوات فتقوم مبان وفيلات وعمائر وقصور من تلقاء نفسها . .
وهو حين يأكل يتذوق فقط فيشعر بطعم الفاكهة ولكنها لا تنزل في
أحشائه لأنه بلا أحشاء . . وهو لا يلبث أن يقلع عن عادة الأكل هذه
حينما يفيق من أوهامه الأرضية التي جاء بها بعد أن انسلخ عن جسده
ويكتسب عادة الروح التي تفتت بالحب وتزود بالعمل الصالح .

والأرواح تتكلم مع بعضها بدون لغة . . تنقل الأفكار وتتلقاها
مباشرة عن الآخرين . . وهي تنتقل في الفضاء بسرعة الفكر . . بمجرد

أن تفكر الروح في مكان تنتقل إليه بدون مواصلات .. ولكن الروح قد تبني قارباً للزهة إذا كانت مازالت متعلقة بعاداتها الأرضية .

ولا يوجد ظلام في الآخرة .. وإنما هناك نهار متألق وليل قصير تستضيء سماؤه طول الوقت بشفق بديع .

وهناك أمراض وآلام في عالم الروح وكلها آلام نفسية وعذابات ضمير .. ويكون علاجها بإدراك الشخص لنفسه واكتشافه لحقيقته من خلال العذاب .. وقد يتم ذلك بمساعدة طبيب من أطباء الروح ويكون في العادة روحاً هادية طيبة .

والموسيقى تؤدي في العالم الآخر بالفكر ، وتنتقل بالفكر بدون آلات .. والنحت والرسم يؤدي بالخلق الفكري للبشر .

ولا يحدث للروح موت .. وإنما يحدث لها انتقال إلى درجة أعلى وإلى عالم أبهى وذلك بأن ترتفع ذبذبتها كلما اقتربت من الكمال فتعلق إلى عالم أكثر شفافية حتى تبلغ غاية تطورها وكاملها فتصل إلى الروح الأعظم وتندمج فيه ..

وقد تتناسخ الروح وتعود إلى الأرض وإلى حياة اللحم والدم لتعاني مرحلة ثانية من مراحل الفداء والنضج والألم لتجني الخبرة والحكمة إذا كانت الخبرة والحكمة مازالت تنقصها ..

والروح في المادة تقوى بمرور الزمن ولا تضعف لأنها تزداد نضجاً ..

والمحب قد يؤدي إلى اندماج روخين في روح واحدة ..

والروح في الآخرة تحتفظ بذاكرتها كاملة وهي تستطيع أن تستعيد كل تفاصيل حياتها الأرضية بما فيها من خطايا وذنوب .. وتعاني الندم والألم حتى تطهر ..

وبعض الأرواح تستطيع أن تتخاطب من خلال الأحلام بأقاربها من الأرضين ..

وبعض الأرواح الشريرة تلبس الأجسام الأرضية وتصيبها باللوثة والجنون والأمراض المستعصية ..

وبعض الأرواح الحيرة تلهم أحبابها الخير والمحبة والتوفيق والبركة ..

وفي العالم الآخر حيوانات مقترسة ولكنها لا تقترس لأنها فقدت الرغبة في الطعام فترى الأسد ناعماً في حضن الحمل .. وهناك فراشات وحيوانات وحيوانات مستأنسة من كل نوع وزهور جميلة من كل لون ..

وليس في الآخرة دول ولا سياسات ولا أحكام .. لأن الأرواح يحكمها قانون التوافق الطبيعي فكل روح في مرتبتها المتفقة مع ما بلغته من نضج وحكمة وخير ..

إن الحكمة والمحبة تهبها التدبيرة العالية التي تساعدنا على التحليق
إلى المرتبة الأرفع التي تناسبها .. بينما لا تستطيع روح منحطة أن تبلغ
هذه البرى فتظل في مهاوئها السفلية ..

قانون التوافق يعمل في إحقاق العدالة بدون نظم سياسية وبدون
حكام ..

ولا توجد حروب لأن صراع الخير والبشر يتخذ مظهرًا عقليًا
ضاهيًا ..

ولا يوجد إكراه ولا إجبار وإنما حرية مطلقة

والحرية هناك هي التوافق مع القانون السماوي ..

ولا كهولة ولا شيخوخة في الآخرة فالأرواح تعود إلى شبابها
وتكونها الناضر ..

والأطفال ينمون بسرعة إلى طور الشباب ..

وسكت أمرى خان لحظة ومضى يدخن بينما سألت أنا في نشوه :

سبب وماذا عن الجنة والجحيم ..

الجحيم في الآخرة ليس الجحريق ولا النار وإنما هو غدايب

معنوى له صور شتى ..

لحظة الإنفصال بالموت تكون لحظة ألمية طويلة بالنسبة للأرواح الشريرة . . . وبعد الموت تظل الروح الشريرة تعاني من عاداتها الأرضية فيخيل لها أنها مازالت لها جسد وبالتالي تشعر بالآلام الجسدية التي كانت تعانيها على الأرض . . . وتشعر بالجوع والتعب والأمراض وبالأوجاع البدنية . . . وقد تستمر هذه الفترة سنوات وقرون حتى تدرك خلاصها . . .

وتظل ذنوب الروح الشريرة شاخصة أمامها طول الوقت . فالتعالي يظل يرى صور ضحاياه ويسمع أبنينهم . . .

ولا يكون عذاب الروح بصدور حكم ضدها بالإدانة وإنما هو عذاب تلقائي نتيجة لنقصها . . . مثل التخمة نتيجة الإفراط والممل نتيجة الكسل . . . العذاب جزء من قانون التوافق السماوي . . . لا إكراه فيه ولا إجبار . . . لكل بحسب عمله .

وبعض الأرواح الشريرة تعيش في عزلة وظلمة مع الأرواح الشريرة أمثالها . . .

ويكون عذاب الأرواح للناقصة بافتضاحها وعذاب الأرواح المتكبرة يهوانها أمام من كانت تحقرهم وعذاب الأرواح الأنايية بحياتها في وحدة حيث لا تجد أحداً يعني بأمرها أو يفكر فيها .

ودخائل النفوس تكون مكشوفة لأصحابها في الآخرة وهذا لون آخر من ألوان عذاب الأرواح الشريرة فهي تعيش في مكاشفة تامة لنفوسها المظلمة وخطاياها . . .

وبعض الأرواح الشريرة تعود بغير انقطاع إلى حيث دفنت جثتها حيث تحلق حول القبر وتشعر بإجسامها تتحلل والدود ينخر فيها . . . وقد تظل تعاني هذا الارتباط الوهمي سنوات .

وتظل الأرواح التي انتحرت تعاني من لحظة انتحارها . . . وقد روت نروح انتحرت بإلقاء نفسها من برج . . . أنها ظلت تعيش في حالة شعور خفيف بأنها تهوى من حالق وأنها على وشك الارتطام بالصخر . . . وظل هذا الشعور الفظيع يلازمها أكثر من مائة سنة . . .

وبعض الأرواح الشريرة يقضى عليها بالعودة إلى لعنة الميلاد فتنامخ من جديد في اللحم والدم وتعود إلى الحياة الأرضية لتكفر عن آثامها . . . وبعض الأرواح المخطئة تشعر بالنور الباهر كأسياخ من حديد تخرقها وتغشى بصرها . . .

ولكن عذاب الأرواح دائماً عذاب موقوت محدود له آخر . . . وهو ينتهي في العادة لحظة بمظلة الروح وندمها واكتشافها لجہالتها وترديها . . .

في تلك اللحظة تخف أثقها وترتفع ذبذبتها فتخلق إلى عالم أجمل وأكمل . .
ولذا كان عذاب الآخرة لونا من التطور والارتقاء والتعلم لا ضرباً
من التنكيل والانتقام . . فهو عذاب لفترة وليس للأبد . .

أما الجنة فهي حياة الروح في عجة وعمل وارتقاء دائم إلى آفاق
لانهاية حيث تبلغ الروح الأعظم وتندمج فيه . .

وسكت أمرى خان ومضى يدخن ويتطلع إلى القمر . . بينما قلت في
استغراب . .

— هذه الصورة عن العالم الآخر تشبه فكرة أفلاطون عن عالم
المثل . . إنها أشبه بالخيال الأرضي منها بالخيال الزوحي . . أنا أعتقد أن
مقالته الوسيطة مسز ما كبرى هي: تصوراتها الشخصية وقراءاتها الشخصية
في الفلسفة والتصوف . . وأن ماروته عن العالم الآخر هو تخميناتها ولا
دخل للأرواح في الأمر . .

— من الجائز . . إنما أحببت أن أطلعك على ما سمعت . . ولا أنكر
أني فكرت مثلك ساعتها . . برغم الرسالة المكتوبة بالسندسكريتيه وعليها
توقيع والدى . .

— أن الوسطاء المحترفين في العادة يتقنون اللغات القديمة . . فهذه
تجارهم الراجعة . . وهم يعرفون كيف يروجونها . .

— لقد كانت هذه نظريتي . . . ولكنى عدت فقلت لنفسي . . . ولماذا لا يكون أفلاطون في نظريته عن المثل . . . وسيطاً ملبهاً أكثر منه فيلسوف . . . ألا يمكن أن نعتبر الشعر والفلسفة والموسيقى إلهامات تصلنا في لحظات الصفاء . . . شأنها شأن أية وساطة . . . ويكون أفلاطون في جمهوريته في هذه الحالة يروى حقيقة أكثر مما يروى فرضاً فلسفياً . . .

— هذا غاية في الشطح . . . لم يبق إلا أن تصنع لي أجنحة وأنا واقف بجوارك . . .

— صدقتي أن لنا أجنحة خفية هي عقولنا وأرواحنا . . .

— سوف تتعب نفسك كثيراً يا صديقي . . . أما أنا فقد أرحت نفسي من كل هذه الفروض . . . أنا بشر من لحم ودم وحواس . . . ولا شيء حقيقي سوى الواقع اليومي الذي أعيشه . . .

— وماذا تقول فيما يفعله البراهمة . . . أليس واقعاً لسته يديك . . .

— لقد اعتبرت ما رأيت شعوزة واحتيالاً وخداع حواس وأرحت

نفسى . . .

— حينما تبدأ بتكذيب حواسك . . . فقد بدأت قصة تعبك صدقتي . . .

لا راحة في هذا الطريق الذي سلكته أبداً . . .

— إني أفضل أن أفكر على طريقة كوما . . .

— لا تنس أن جميع العلوم اليقينية التي تعترضها قد بدأت على شكل خرافات وأساطير ولو تتبعنا منشأ الطب وعلم النفس والطبيعة والكيمياء والذرة لعجبت في أنها كلها بدأت بتخمينات وشطحات وأحاجي مثل هذه الأحاجي التي يقدمها علم الأرواح تماماً . . .

— حسناً . . . سوف انتظر حتى يصبح علم الأرواح علماً يقينياً . . .
بدلاً من أن أتعب نفسي في الأحاجي . . .

— ولماذا لا تعمل شيئاً بدلاً من الانتظار . . . فقد نستطيع إذا فكرنا سويًا أن نصل إلى شيء . . . وأن نختصر طريق الظلام الذي نسير فيه . . .

هل نسيت أن المجال المغنطيسي للأرض ظل مجهولاً حتى اكتشف
بوساطة الحجر المغنطيسي صدفة . . . وبالمثل كان الوسطاء هم البوصلة التي
كشفت المجال الروحي للإنسان . . . هكذا . . . بالصدفة أيضاً . . . صدفة
الإلهام . . .

— إني رجل علم . . . أعطيت مقدمات معقولة أولاً وأنا أسير معك إلى
آخر الدنيا . . .

أما أن أبدأ رحلتي بلا معقول . . . فإن النهاية سوف تكون معروفة
سلفاً . . . إنها مستشفى المجاذيب . . .



— فكر قليلا . . إن كل ما رأيت وسمعت هو المعقول بعينه . . كل ما في الأمر أنك يجب أن تطرح عنك التفكير العادي والمبتذل والألوف . . وتفكر بعمق . . بعمق طفل ينظر إلى الدنيا من جديد . .

— بعمق طفل . . لقد قلتها . .

— إننا مازلنا في طفولة الفكر صدقتي . . وهذا النضج الذي يصوره

لنا اليقين . . هو نضج زائف . . فلا يقين هناك . . أكثر من يقين الترجيع والاحتمال . .

— مازلت أفضل طريقة كما كوما في النظر إلى الأمور . . ليس لدينا وقت للشطح في المجهول . . هناك أمور عاجلة تنتظرنا . . والعالم أقفر وأتعب من أن نضيع وقته في سنوات أخرى من التخمين . .

— أعتقد أن هذا الكلام يضع نهاية واضحة لحديثنا . .

ونظر إلى ساعته مردفاً . .

— لقد سهرتلك أكثر مما ينبغي هذه الليلة . . لقد فات موعد نومك بكثير . . استأذنيك . . وأرجو لك نوماً طيباً . .

قال هذا ورفع كفيه مضمومتين في تمية وداع وانصرف . .

وبقيت وحدي في الغرفة مع القمر . . والصمت . . والظلام . .

وحفيف الأغصان في الحديقة .. يوتسلت إلى مفاصل رعدة .. ولدت أفتح
الباب وأجرى خلفه . . لولا أنى تماسكت بقوة . .

إن في جو الهند شيئاً لا يمكن أن يوصف .

أو لعله الوهم . . وهم القراءات العديدة التي قرأتها عن روحانية الهند . .
فهاهو قمر مثل كل الأعمار . . وحديقة مثل كل الحدائق . . وليل
مثل أى ليل في الدنيا . . وفندق مثل كل الفنادق . . وإعما الذى يختلف
هو عقلى الذى فقد وضوحه واتزانه . .

وتمدت في فراشى وعينى إلى النافذة أستأنس بضوء القمر . .

وسرى الخدر في عقلى والتميل في أطرافى وشعرت أنى أموت من
التعب والإرهاق وطول التفكير وأن رأسى بها ثقالة من حديد وأنها
تضخم وتتضخم . . وأنى لا أستطيع رفعها من الوسادة . . وأن أطرافى
تتيس وتخشب فلا أستطيع لها حراكا . . وإنى أتحوّل إلى مجرد وعى
مستجيب فى جا كته جيس . .

وجأة داهنى إحساس غير معقول بأن النافذة التى أنظر منها هى فى
الجهة الغربية من الحجرة . . بينما نافذة غرفتى على ما أعلم هى فى الجهة
الشرقية . . إذن فأنا فى غرفة أخرى غير غرفتى . . ونظرت فى ذعر إلى
الحائط . . كانت هناك صورة كبيرة لطاغور . . إنها ليست غرفتى بالفعل . .

فلم تسكن بغرفتي صورة لطاغور . . لقد كانت هناك صورة لطاغور نفس
الصورة بالإطار المذهب ولكن في غرفة أمرى خان . . وكان هناك تمثال
نصفي لغاندى . . هاهو بالفعل . .

وغمغمت في دعر . . لقد انتقلت إلى غرفة أمرى خان . . كيف . .
ومق ؟ . .

وصرخت من الدعر . .

وخرجت صرختي بهيوجة خافتة مرعبة . .

فتحت عيني فوجدت أمرى خان واقفاً عند
رأسى وفي يده منديل به عطور هندية حادة يضعه
عند أنفي مبتسماً .. همست في ضعف ..
— أين أنا ..

— أنت في غرفتك في فندق أشوكا وفي أمان بين أصدقائك وأحبائك ..
وتضعضعت حواسي ورأيت نفسي أبكى فجأة .. أبكى في تعاسة كطفل
يتيم ضائع حائر بلا أهل ..

— أنت تبكى .. هذا غير معقول ..

— لقد كدت أقعد عقلي في هذه اللحظات القليلة التي مضت .. كاد
يودى بي كابوس فظيع .. خيل إلى أنى انتقلت فجأة وإني في مكان غير
المكان .. كنت أرى هنا تمثالاً نفس التمثال الذى على مكتبك .. وعلى
الحائط صورة كبيرة لطاغور في إطار مذهب نفس الصورة والإطار التى

في غرفتك .. هكذا في لحظة .. وكأني هواء .. وكأني تخلفت الجدران
وانتقلت إليك دون أن أبرح مكاني ، كان شيئاً خيفاً ..

— نحن في عصر تنتقل فيه كل الأشياء بسهولة .. صورنا تنتقل
بالتليفزيون .. وأصواتنا بالراديو .. ورسائلنا بالبرق ..

لم يعد عجباً أن تنتقل أرواحنا ..

— لم أعد أعجب لأي شيء أراه في بلادكم .. لو قلت لي إن روحى
خرجت منذ لحظات لصدقتك فقد خيل إلى ساعتها أن روحى خرجت منى ..

— لقد كنت مغمى عليك تماماً ..

— لعلى مت نصف موت ..

ورحت أتحسس نفسى غير مصدق ..

— تصور لقد خيل لي أنى هواء .. وأرق من الهواء ..

— نحن هواء .. وأرق من الهواء .. ألا تنتفذ فينا الإشعاعات
كأنها تنتفذ في مادة خلاء .. أن بصرفنا كليل جداً .. اننا لا نرى أنفسنا
على حقيقتها ..

— إننا مخلوقات جديرة بالإشفاق ، مخلوقات عمياء بكلاء صماء ..

ولقد كنت أشعر ساعتها أنى أصبحت ذلك المخوق الجدير بالإشفاق
 فخلاً ، كنت أشعر أنى فى حاجة إلى يد تأخذ بى إلى شاطئ أمان . .
 وأنى أتقدم زحفاً منذ آلاف السنين . . . وأنى تعبت . .

— لقد تعبت . . تعبت . . أريد أن أعود إلى بلدى . . لن أبقى
 فى بلدكم بعد الآن .

— بهذه السرعة . . إنك لم تسكد تقضى بيننا أياماً . . إنك لم تر
 شيئاً من الهند . .

— لقد رأيت كل الهند . . لقد رأيت منها ما يكفينى وزيادة . . لقد
 غيرتنى هذه الأيام القليلة . . بدلتنى . . جعلت منى إنساناً غير الإنسان . .
 لقد اكتشفت أنى لم أكن أعيش . . لم أكن أفهم شيئاً . .
 ومددت له يدى . .

كنت عطشاناً إلى اليد الهادية التى تأخذ يدى . .

قلت له أنى أريد إن ألتقى بالبراهما . . أريد أن أحج إليه . . وألتصق
 منه النصح والبركة وأتلم منه شيئاً جديراً بالعلم قبل أن أعود إلى بلدى . .
 وأمسكت بيده وتطلعت إليه فى قلق . .

— أتظن أننا نجد البراهما فى كهفه فى هذه الساعة المبكرة . .

قال بإشفاق وهو ينظر إلى عيني اللهمايتين :

— نعم إنها ساعة صلواته في العادة . .

— خذني إليه . . إني في أشد الحاجة إلى كلماته . .

* * *

وفي كهف البراهما جلست عند قدمي الرجل الصالح . .

وكانت عيناى تدمعان انفعالا . .

قلت له إني أريد أن أتعلم . . أريد أن أفهم . . أريد منه أن يأخذ
بيدي ويداني على طريق النجاة ويقراً على من آيات كتابه . .

قال الرجل الصالح في نبرات جليلة . .

— اعلم أن روح الله تملأ الوجود . . . وأن كل ما في العالم من فن،
وفكر وعلم وجمال هي إذاعات من هذه الروح الكلية الخالقة . . وما
روحك إلا قبس من هذه الروح الكبرى تتلقى منها . . أنت أحد آحاد
الأحد الأكبر .

أعلم أن هذه الروح الكبرى ليست بشراً ولكنها القانون الأسمى
لكل الوجود . . اعلم أن الحياة لا تصلح بغير صلاة . .

وأن صلاتك لا تكون نافعة إلا حينما تنسى أنك تصلى وتتوجه
بكليتك إلى روح الوجود في صرخة استنجد واستغاثة ودهشة وإعجاب
وحب وإبهال مأخوذ.. فالصلاة ليست كلمة تتفوه بها وإنما هي شعور
بالقداسة والافتتان والإجلال والحب والفناء في المقام الإلهي الأرفع
وإدراك بأننا قطرة من النبع الصافي اللانهائي نصدر عنه ونعود إليه..

أعبد إلهك إلهاً موضوعياً تمثل فيه وتصدر عنه جميع القوانين
الطبيعية الحكيمة التي يكتشفها العلم ببطء ومشقة.. وحاول أن تعيش في
توافق مع نواميسه الحكيمة فهذه هي حريرتك..

وتذكر أن الفضلاء من جميع الأديان هم في الحقيقة على دين واحد..

تذكر أنك تبتعد عن روح الله كلما تقربت إليه بالطقوس والسكّهانات
والمراسيم والمعتقدات التقليدية وكلما كنت متحيزاً في عقيدتك حرفياً في
إيمانك..

الدين الحقيقي هو أن تعبر عن حبك للروح الأعظم بحبك لأطفاله..

وحينما تنسى ذاتك في خدمة الآخرين صوف تنمو ذاتك وتتعاظم
في التركيب والقوة..

بالعمل والمحبة وخدمة الآخرين تعبد إلهك ونشعر بجماله..

كما أنك لا تستطيع أن تكون سعيداً وأنت في أسرة شقية فكذلك
لا يمكن أن تكون سعيداً وأنت في مجتمع شقي وعالم شقي . . .

أنت مشغول لما يحدث لمواطن لك في آخر الدنيا . . هذا هو الدين
. . كل ما نقوله لك أنا نيتك شر لأنها تجعلك في عزلة عن الآخرين
وتحرم روحك من غذائها الطبيعي باتصالها بالحياة في جميع مجالاتها . .

أنا نيتك تفقرك وتجذب روحك . .

تذكر أن السعادة ليست حظاً ولا بختاً وإنما هي قدرة . .

أبواب السعادة لا تفتح إلا من الداخل . . من داخل نفسك . .

السعادة تبحثك من الطريقة التي تنظر بها إلى الدنيا ومن الطريقة
التي تسلك بها سبيلك .

موقفك المشبع بالحب والتفاؤل يحول عذابك إلى كفاح لذيد ويحول
محاربتك للشر إلى بطولة ونبيل . .

إحساسك بالجمال يجعل الطبيعة تنبض من حولك بالموسيقى والنغم . .

تفتحك للمعرفة يجعل رحلتك الشاقة زهرة مشوقة مذهلة . .

تواضعك يجعل الفشل لا ينال منك . .

تفانيك في عملك يجنبك ملل الفراغ وقنوطه وضجره ويفتح لك

كنوز المعرفة وييسر لك مباحث الاكتشاف ونشوة النصر . .

تذكر أن الدين الحق لا يناقض العلم لأن الدين الحق هو غاية العلم .

أن نظام الكون لم يرتعد أمام منظار جاليليو وإنما الذي ارتعد هو

نظام الكهنوت . .

أن عصرنا في حاجة إلى ديانة عصرية إنسانية مصفاة من أدران

الطقوس والكهنات متفتحة للجديد من كل علم ومعرفة خالية من التعصب

والعصرية . . عالية . . واحدة . . فالله واحد ونواميسه ثابتة . .

وسكت الرجل الصالح وأغرق في تأمله . .

قلت له سائلا في خشوع . .

— أريد أن أفهم ما الحياة . . وما العقل . . ومن أنا . . وهل أنا:

إلا غنى الذي يفكر ويتكلم ! . . ؟

قال في ابتسامة إشفاق :

— إذا كانت الساعة هي التي تفرز الزمن لقات إن محك هو الذي

يفرز التفكير ، ولكن الساعة لا تفرز الزمن . . ماهي إلا وسيلة للتعبير

. . وكذلك محك ماهو إلا خادم يعبر عن قليل من كثير مما بعقلك . .

وما التلازم بين ما يحدث لمحك من أمراض وما يحدث لفكرك من

اضطراب إلا تلازم صوري كالتلازم بين مسبار وبين ثوب معلق عليه . .
 إذا اهتز المسبار اهتز الثوب وإذا وقع المسبار على الأرض وقع الثوب . .
 ومع ذلك فالثوب شيء والمسبار شيء آخر . . وكذلك عقلك يتجاوز
 حياتك الدماغية ويبقى بعد فناء الدماغ . . لأنه شيء والدماغ شيء آخر . .

قلت في خشوع :

— والحياة . . ما الحياة . . ومن أين . . . وإلى أين تنتهي بنا
 هذه الدوامة . .

قال البراهما مبتدئاً :

— كان أهل الغال أيام الاسكندر يتأملون النجوم على حسابان أنها
 نقوش في السقف . .

وما زلنا إلى الآن نتأمل الحياة على أنها ظواهر ونقوش حدودها
 ما نلسه منها بالحواس لانحاول أن ننفذ إلى باطنها وجوهرها . .

أن اعتقادنا بأن الحياة انفجار كوني نشأ بالصدفة مثل اعتقادنا بأن
 انفجار في مطبعة يمكن أن يؤدي بالصدفة إلى أن تتراس الحروف على
 شكل قصيدة لطاغور واعتقادنا بأن تطور الحياة وارتقاءها كان بإرشاد
 الظروف المادية وحدها لا يفسر تطور الحياة أبداً . . أنه قد يفسر ارتقاءها

إلى فصائل أقوى وأقدر ولكنه لا يفسر ارتقاءها إلى فصائل أجمل وأرشق
والطف . . فما وجه المنفعة هنا . .

وإذا اعتبرنا أن الفصائل الأجل جاءت نتيجة الانتقاء الجنسي . .
فالسؤال يظل مطروحاً . . ما وجه المنفعة في اختيار الذكر للأنثى الأجل
. . وأين العامل المادى هنا . .

أن التفسير الأكثر قبولاً أن هذه المادة الحيوانية كان يرشدها عقل
يوجهها ويهديها ويعطيها الشكل والجسم مهما بدا محكوماً بها ولذا كانت
عملية التطور بطيئة غاية البطء .

أن التفكير للمادى ناقص عاجز لا يفسر لنا حياتنا وهو لا يعطينا
إلا عمراً محدوداً شاحباً نهايته الموت بلا بعث بلا عزاء بلا أمل . .

الموت ثم الظلام ثم لا شيء . .

نظرة قائمة تسلب الفرد قدسيته . .

هم يعيرون على الشرق أنه سادر في أديانه وروحانياته . .

ولكن الأديان ردت للفرد كرامته وقداسته واعتبرته حقيقة مطلقة
باقية حينما أعطته روحاً تعلو على الموت وتتحدى الفناء . . وهى بهذا
أعطته العزاء والأمل وجعلت من عذابه كفارة ومن آلامه فداء . .

ألا تشعر بعبقرية الكون ونظامه وجماله وعدالته من خلال هذه
النظرة الدينية . .

ألا تشعر بالراحة لأن هناك ناموساً عادلاً يشمك ويرفعك حراً
مشغولاً باقياً خالداً على الزمان . .

أليس هذا دليل من داخلك على صدق الخلود . .

— أهي الروحية مرة أخرى . .

ابتسم البراهما في سماحة قائلاً :

سما ما تشاء . . لتكن « مادية » ، « مادية جديدة » أرق والطف
وأرحب وأذكي من المادية التي يفكرون بها في الغرب . . نحن لا نريد
أن نتعارك على أسماء . .

إن روحنا ما هي إلا مادة . . في حالة جديدة لا نعرفها . .

.. لقد عقدت بذلك هدنة سوف تذكر لك على التاريخ . . لقد

صالحتي على نفسي . .

ولم تظرف ردائه . .

— أنت أجمل ما في الهند . .

ما أنا إلا تراب الهند .

— سوف يهدني أن أعود إلى بلدي بنفحة من هذا التراب المقدس . .

وكان هذا آخر يوم لي في الهند ..

وحيثما كنت أضع قدمي في الطائرة بعد ذلك بساعات عائداً إلى بلدي
كان أمري خان في وداعي وكان يقدم لي منديلا ملفوفاً ..

— إنها صرة من الملح هدية من البراهما .. وأخذت المنديل بيد
صنينة وأنا أهمس ..

— أشكرك على هذه البركة .. سوف يكون هذا الملح .. ملح حياتي
ونورها ..

وصعدت سلم الطائرة وأنا أضمه إلى صدري .

كانت تنتظرني أخبار مثيرة لحظة وصولي إلى القاهرة .. فقد وجدت على مكثي بمصلحة الآثار عدداً من أوامر التكليف بالانتقال فوراً إلى مناطق الحفائر في سقارة والأهرام وتل العمارنة لمعاينة الكشف الأثرية التي تمت هناك ولقراءة البرديات الهيروغليفية التي عثر عليها ، وكان معنى هذا أن أحزم حقيقتي وأسافر في الحال .. فلم يكن هناك من يحمل محلي في هذه المهمة تكبير متخصص في اللغة القديمة ..

وفي الخرائب والأنقاض وبين الحطام وبين أكوام الرديم حول المصاطب الفرعونية القديمة شعرت أنني أعود إلى عالمي .. ذلك العالم البائد الذي عاشته عشرين عاماً من عملي مفتشاً بالآثار .

وكان العمال يشيرون إلى البئر الأثرية التي اكتشفت ..

بئر محفورة في الصخر تنزل عمودية مسافة أربعين متراً .

وكان العمال لا يزالون يكسحون الرمال والحصى من داخلها ويكشفون عن درجات السلم التي تصل إلى قاعها ..

وفي القاع كنت أرى عبد الرسول يصفر في فرح وهو يدق بفأسه على الباب السرى الذي اكتشفه في قاع البئر ويذبح السقطة الحجرية فاتحاً الطريق إلى غرفة الدفن ..

وكنت أنزل الدرجات في حذر ومعى معاون الآثار يتحدث في انفعال عن التحف التي عثر عليها .. أساور وعقود وخواتيم من الذهب والفضة .. مكاحل وأدوات زينة من بينها مكشط للاظافر لإزالة الزوائد من النحاس مقبضه مرصع باللآزورد .. أواني من الديوريت والمرمر .. لوحات من العاج عليها مناظر للحياة الملكية محفورة حفراً بارزاً ، تماثيل من الأبنوس .. أقمشة ملونة من الكتان .. جبوب من القمح ما زالت على حالتها وجدت محفوظة في قوارير . مراوح وعصى وكراسي من الخشب والجلد .. آلات نفخ موسيقية ..

وتقدمنى للمعاون داخلا من الباب السرى إلى غرفة الدفن ..

وكان أول ما لفت نظرى أن التحف مكومة في غير نظام حول التابوت .

وقال معاون إنها عثر عليها بهذه الصورة .

وكان التابوت المرمر فارغاً ومغطى ولا أثر فيه لأى مومياء أو لأى

حطمان تدل على مومياء .

وكان الأمر محيراً .

معنى هذا أن المومياء سرقت ..

ولكن إذا كانت المومياء سرقت فكيف غفل اللصوص عن هذه
المتاع الثمين المكوم بجوارها .

ولماذا كومت هذه التحف النادرة على هذه الصورة .

ولماذا لم تسرقها اليد التي كومتها ..

وكيف يسرق السارق جثة لا تنفعه بشيء ويترك ذهباً بهذه القيمة..
كان هناك تفسير واحد .. أن المومياء كانت مدفونة في مقبرة أخرى
اقتحمها اللصوص وأتلفوا الجثة على عادة اللصوص أيام الفراعنة)
وسرقوا ما أمكنهم سرقة من متاع المقبرة . . ثم فطن الكهنة المشرفون
إلى أمر السرقة وما حاق بالجثة من تلف فنقلوا التابوت الفارغ إلى مقره
الجديد وغطوه وأخفوا أمر السرقة عن فرعون وكوموا ما تبقى من متاع
حول التابوت وتركوا كل شيء في فوضى لأنهم كانوا في عجلة من أمرهم
وفي رعب من أن يكتشف فرعون ما حدث فيعاقبهم عقاباً شديداً على
تقصيرهم في حراسة المقابر (ولم يكن لكهنة المقابر عمل في تلك الأيام
سوى حراستها من اللصوص) .

ومعنى هذا أن التابوت لشخص عظيم القدر .

وإذا كان هذا المتاع هو ما تبقى من المقبرة بعد سرقتها ، فلا بد أنه كان متاعاً فخماً هائلاً .. وهذا يؤكد مرة أخرى أهمية البيت وعلو مقداره ..

ولاحظت أن غرفة الدفن مبطنة بكتل من خشب الأرز .. وهو خشب كان يجلبه الفراعنة بإرسال بعثات إلى جبل لبنان .. ومن بين التماثيل التي عثرت عليها في الكومة حول التابوت كانت هناك تماثيل صغيرة لطحان وعجانة وخباز وكاتب وجواري وراقصات وحاملات جرار ووصيفات ..

كنت أمام صاحب قصر ربما وزير أو أمير أو ملك فهؤلاء هم الذين كانوا يدفنون بهذه الأبهة ومعهم تماثيل لحاشيتهم وخدمهم وموظفيهم ضياعهم حتى إذا بعثوا بعد الموت كما كانت تقول لهم تعاليمهم القديمة وجدوا أنفسهم يستأنفون حياتهم الأولى بكامل أبعثها بين خدمهم وحشهم ..

وطبقاً للأساطير الفرعونية يخرج من الجسم بعد الموت روح نورانية هي « با » وشبح مادى يماثل الميت في كل شيء هو « كا » .

وهذا الشبح المادى يعود بعد الموت ليعث عن صاحبه فإذا وجد جسده حافظة لمعالها وشكلها تذكرها وحل فيها فبعثها حية . ولهذا حرص

الفراغنة على تحنيط جشهم لحفظ معالمها حتى تستدل عليها « الكا » ..

و « الكا » تستطيع بالسحر والتعاويد أن تحل في تمثال الميت أو رسمه أو صورته إذا لم تجد جسده .. لأن الصورة تذكرها بشبهها ..

ولأنها مادية فهي تحتاج إلى غذاء ولهذا يضع الفراغنة أواني الطعام حول موتاهم لتغذى « الكا » .. ويقدم الكهنة القرابين الطازجة كل يوم ويقراءون الصلوات لتستطيع « الكا » أن تستمد منها غذاءها .

وإذا لم تجد « الكا » غذاء فإنها تستطيع أن تغذى بالسحر من رسوم الطعام على الجدران . .

ولهذا جمعت مقابر الفراغنة بين فنون التعنيط والنحت والرسم لأنها الوسائل التي تتعرف بها « الكا » على شكلها وصورتها وتعود إلى حياتها الأولى ..

ولم يهتم الفراغنة « بالبا » النورانية إلا من تبع منهم عبادة الشمس « رع » فحرص على الانتقال بعد الموت إلى السماء وهؤلاء بنوا الأهرامات العالية والراكب الشمسية لمصاحبة رع في رحلته الأزلية عبر السماء .. هؤلاء كان الاندماج في النور الإلهي عن طريق « البا » هدفهم ..

كنت أسترجع في ذهني هذه الأساطير الفرعونية وأتذكر في نفس

الوقت كلمات صديقي الهندي مري خان عن الروح المادية اللطيفة التي
تنتقل بعد الموت إلى عالم من الذبذبات أرق من عالمنا ولكن يشبهه في كل
شئ، فيه فيلات وقصور ومستشفيات ومدارس . . وفيه فاكهة وزهور
وحوانات . . وفيه موسيقى وفن وأدب وفيه عمل وحب وخير وشر . .

ما الفرق بين هذا العالم وعالم الآخرة الذي يعيش فيه الفرعون
« والكا » . الروح المادية . . التي اعتقد فيها الفرعونى . .

وهي مثل روح صاحبنا تستطيع عند اللزوم أن تتغذى على الصور
والرسوم . .

كان كلام امرى خان يبدو لي مشابهاً للأساطير الفرعونية كما هو
مشابه لفكرة المثل الأفلاطونية .

ولو أنى صدقته لوجب على أن أصدق الفراعنة ولوجب على أن أغرق
في عالم الأساطير والخرافات إلى أذنى . .

وكنت ما زلت أذكر العالم المسحور الذي عشت فيه مع البراهما
فتعاودنى الرجفة وتتخلل رائحة التابوت والمكاحل والعطور البائدة
حواسي . . فتضاعف من تلك الرجفة .

وترتفع كلمات معاون الآثار مخيفة بربرية .

— تصور هذه الحبات من القمح . . عمرها أربعة آلاف عام . .
وهي ما زالت على حالها . . ربما ضمرت قليلا . . لكنها ما زالت محتفظة
بشكلها ، هل تظن أن هذه الحبات ما زالت حية . .
هل تظن أنها يمكن أن تنمو إذا زرعت .
هل يمكن أن يكون كلامه صحيحاً ؟ !

هل يمكن أن تنمو هذه الحبوب بعد أربعة آلاف سنة من الموت في
جيب تحت الأرض . . وأمسكت بالحبوب أتفحصها بعيني المجردة . . ثم بعدسة
كانت تبدو ضامرة عجفاء لكن محتفظة بشكلها . .
ووضعت بعضاً منها في جيبى . . على سبيل البركة . .

هذه حبوب أكل منها الفراعنة رغيفاً منذ أربعة آلاف سنة . .
وغاب المعاون في الحجرة الثانية الملاصقة لحجرة الدفن ثم عاد يحمل
لغافة من البردى . بسطها أمامي في فضول . . كانت ممزقة في أماكن . .
ولكن الكتابة الهيروغليفية واضحة عليها . .
وقال المعاون إنها ليست البردية الوحيدة التي عثر عليها . . فهناك
برديات أخرى . .

وقد عثرت بالفعل في الغرفة الثانية على عدة برديات مكتوبة باللغة
الهيراطيقية وهي اللغة الهيروغليفية المختزلة . .

كانت ثروة معناها بالنسبة لي سهر عدة ليال في فضاء الطلسم و الرموز .
ولفتها في حرص وأودعتها حقيقتي .. .

وكان المعاون يشير إلى حلقات نحاسية في جدران الغرفة وإلى جبل من
الكثبان يتدلى من إحدى هذه الحلقات .. ويسأل .. ماذا يمكن أن تكون ..
وكنيت أكثر منه حيرة فلم يسبق لي أن رأيت مثل هذه الحلقات في
مقبرة .. وأشرت إلى حقيقتي قائلاً :
— ربما وجدت الجواب هنا ..

أقصد في البرديات .. .

وكانت الغرفة الثانية تؤدي إلى سرداب وضعت به أسلحة من كل نوع ..
تروس ورماح وخنجر وعصى .. ونهاية السرداب صماء مغلقة لا تؤدي
إلى شيء .. .

وكنيت أسأل نفسي طول الوقت .. .

من يكون الرجل العظيم صاحب المقبرة .

وهل هو رجل أم امرأة .. .

إن الأمشاط والمساحل وسكين قص الأظافر وأواني العطور تشير
إلى امرأة .

والأسلحة والتروس والرماح تشير إلى رجل .

هل كانت المقبرة لرجل وزوجته وهذا ما تبقى من متاعها بعد أنه
سرفت . .

كانت أوراق البردي في حقيبي تعدني بالكثير . .

وأخذت مذكرات مختصرة بكل ما وجدته في المقبرة .

وعدت إلى منزلي أحتضن أوراقى وكأنى أحتضن عشيقه . . وفي
طريق العودة هطلت الأمطار بشدة . . وبلغت منزلى وثيابى تعصر
عصراً كأنها أسفنجة مكتظة . . وتقطر بالماء . . وفي تلك الليلة لم أنم .

بسطت أول بردية . . فى شوق . .

وكانت بردية عجيبة . .

كانت كلها أرقاماً . .

وأنا أعرف أن الفراعنة عرفوا الحساب والمهندسة وبرعوا فى علوم
الرياضة . . ولكنى لم أكن أتوقع أنهم بلغوا هذا القدر من الدقة والتفوق .
كانت أمامى أرقام عشرية ومعادلات وعمليات جمع وطرح وضرب
الكسور . . ونظرية شبيهة بنظرية مربع الوتر للمثلث وكيف أنه يساوى
فى المثلث القائم الزاوية مجموع المربعين القائمين على الضلعين الآخرين . .

ونظرية للتواليات الهندسية . . وأكثر بديهيات الهندسة الأقليدية . .
والأرقام من الواحد (و ع) إلى المائة (شاع) إلى الألف (خا)
إلى المليون (حح) ومضاعفاتها وكسورها .

روخت أى ثلث . . (رو معناها جزء وخت ثلاثة . . أى جزء

من ثلاثة) ويكتبونها هكذا : 

والربع ويكتبونه هكذا : 

والجذر التربيعى ويكتبونه
هكذا : 

وتوقفت عند معادلة لم أفهمها . .

وضاعف من صعوبات القراءة أن البردية مكتوبة بلغة هيراطيقية
أى هيروغليفية مختزلة ، وكانت بعض الاختراعات غير مفهومة وغير واضحة .
كان الكاتب أحد علماء الرياضة وكان يعرض طريقة حساية دقيقة
لقياس درجات الزوال الشمسى .

إنها إذن مذكرة فلكية . .

وأنا أعرف أن الفراعنة درسوا الفلك وعرفوا توقيت الفصول

والشهور . . ومازالت الشهور القبطية تحفظ لنا التسمية الهيروغليفية
القديمة للشهور . .

فشهر توت هو تهوت بالهيروغليفية . .

وكيهك هو كاهاكا بالهيروغليفية . .

وطوبه هو طوبيا بالهيروغليفية . .

وبرموده هو براحموت بالهيروغليفية . .

وبشنس هو باخنسو بالهيروغليفية . .

وبثونة هو بأوني بالهيروغليفية . .

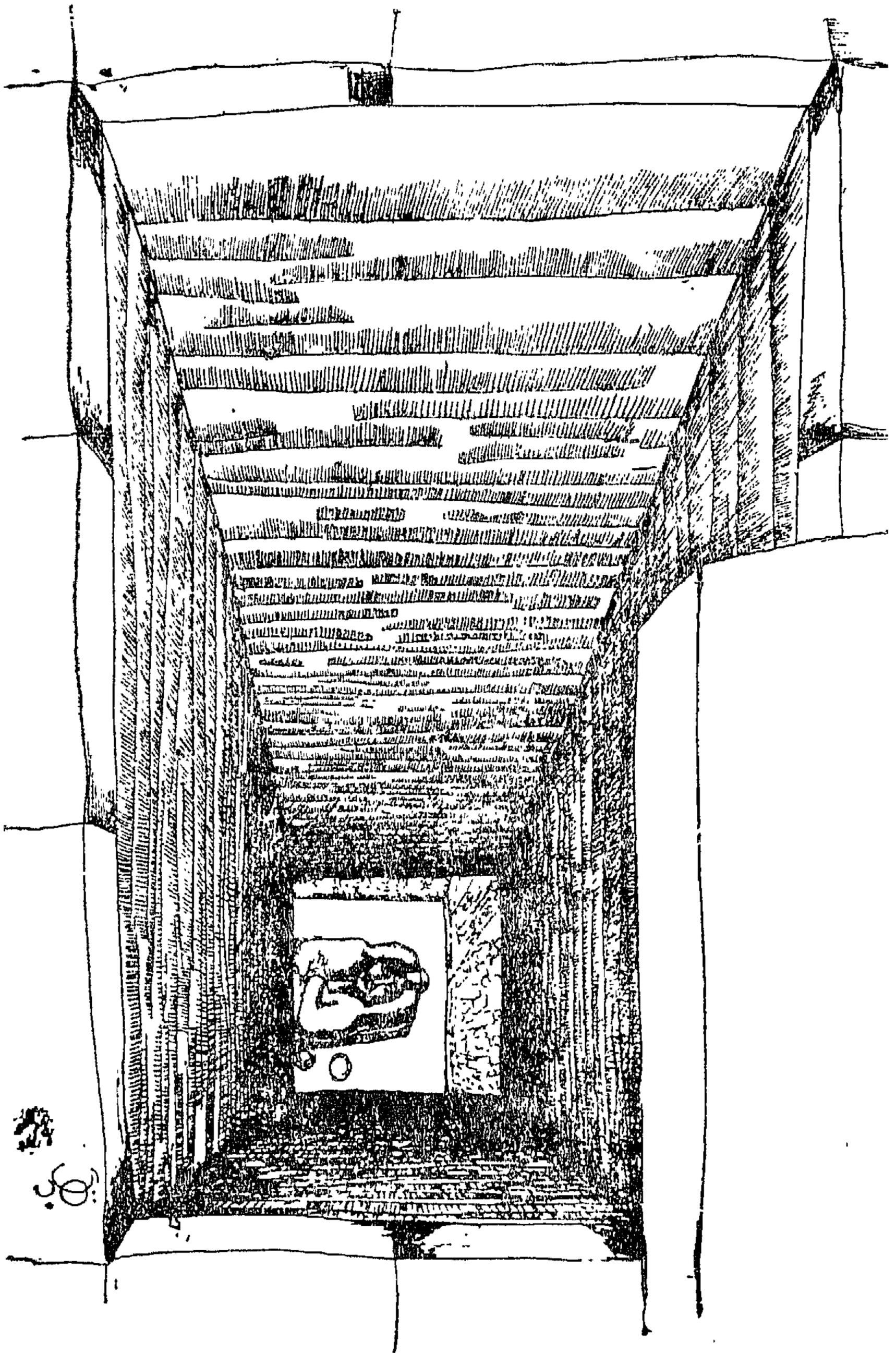
وأيب هو أييب بالهيروغليفية . .

واللغة القبطية تحفظ لنا النطق الهيروغليفي وإن كانت مكتوبة بحروف
يونانية . . فكلمة « مس » بالقبطية معناها « يلد ابناً » .

وقد اكتشف شمليون منها معنى رعمسيس (رع يلد ابناً) ونص
رموز اللغة الهيروغليفية بمساعدة حجر رشيد . .

اللغة الهيروغليفية لم تمت بعد أربعة آلاف سنة . . بل ما زال ينطقها
الرهبان الأقباط في أديرتهم بحروف يونانية . .

إن با أقرأه أمامى هو علم حى وليس علماً ميتاً بائداً . .



ومن يدري أية نظريات جديدة أو قديمة تختفي وراء هذه المعادلات
التي لا أعرف لها قراءة ..

وكان الوقت يمضي وأنا أجمع حولي القواميس .. كل ما وضع للغة
المهيوغلفية من قواميس .. وكل ما قيل في فقه خطوطها .. الخط
المهيرايطي والديموطيقي والسكرميني .. وأقابلها بالمفردات القبطية ..
وأحاول أن أخرج بمعنى دون جدوى ..

كان عقلي قد تحول إلى جدار أصم مصمت لا ينفذ منه نور من فرط
التعب ..

وفكرت أن أدع بردية الفلك جانباً .. وأتناول بردية أخرى على
صبيل التغيير ربما استطعت بذلك أن أنشط ذهني ..

وتناولت البردية الثانية ..

وبسطها أمامي ..

كانت عن فن التحنيط عند الفراعنة ..

لغز الألفاظ الذي حير الباحثين والمؤرخين،

وتيقظت كل حواسي كأنني وضعت رأسي تحت صنوبر ماء بارد ..

كانت البردية تناول بالتفصيل بنداً واحداً من بنود التحنيط هو البند الأخير وهو لف المومياء المحنطة بشرائط الكتان المغموسة بالصمغ طبقة بعد طبقة حتى تبلغ ١٦ طبقة من الضمادات . . وكان بها وصف شامل لمصوات الكاهن المختص بالتضميد وهو يقرأ الشعائر والتعاويذ السحرية عند تضميد كل عضو ليساعده على العودة حياً . . فإذا بدأ بتضميد الرأس مسحها بالزيت وهو يقرأ . . « الآن ثبت رأسك فوق رقبتك وشد أنوبيس عظامك ووهب جسمك القوى فلن يصيبه البلى » . . فإذا شرع يضمّد الساقين قال : « والآن أزلت عنك عجزك عن الحركة . . إنك تقف بنفسك على قدميك وتمشي كما شئت تماماً مثلما كنت تفعل وأنت على قيد الحياة » . .

وتنتهى البردية بترتيل الكاهن للمتوفى . .

أنك تعيش ثانية . . فلقد رددت إليك الحياة إلى الأبد . . وعاد شبابك كأجمل ما كان . .

ولم أجد بالبردية وصفاً لمراحل التحنيط وعملياتها كما كنت أتوقع .

وظننت أن البردية هي واحدة من عدة برديات تتناول فن التحنيط..
ولكنني وجدت أنها البردية الوحيدة .

وكانت البردية التالية عن الطب والجراحة .

وكانت فيها معلومات عجيبة عن تقدم الطب في ذلك العصر .

في مذكرة عن الجروح روت البردية كيف كانت الجروح النظيفة
تعالج بالخياطة والأربطة اللاصقة وباللحم الطري أول يوم ثم بالأعشاب
القابضة والعسل لإيقاف النزيف .

وفي مذكرة عن الحمى وجدت هذه النصيحة .

إذا أصيب الجسم بالحمى وحدثت به تقلصات . . وإذا وجدت وجه
المريض قد غطاه العرق والزبد ونفرت عروق رقبته وتصدبت أسنانه
وازرق وجهه وانقبض فمه والتوى حاجباه وبدا كأنه يبكي . . قل . .
هذا مرض لا أقدر له على شيء . . .

وفي مذكرة عن الكسور . .

إذا تفحصت رجلاً مصاباً بكسر في الترقوة. ووجدت بها قصراً . .
قل . . هذا مرض سأعالجه وأطرح الرجل على ظهره وضع بين لوجيه
شيئاً مائوفاً حتى يبتعد جزءا ترقوته ويرجع الكسر إلى موضعه . . وبعد

ذلك ثبت وسادة من الكتان على الجانب الداخلى من ذراعه . وهو نفس
العلاج الذى يعالج به الجراحون كسر الترقوة إلى الآن . .

والظاهر أنهم لم يجدوا علاجاً للزكام . . وكان حالهم فيه كحالنا . .
قد قرأت هذه التعزيمه لطرد الزكام مكتوبة فى البردية .

انصرف يا ابن الزكام الذى يكسر العظام ويهشم الجمجمة وينخر المخ
ويصب المرض فى فتحات الرأس السبع . . لقد أحضرت لك جرعة
خاصة ضدك . .

أما الجرعة فمواد مركبة من لبن امرأة وضعت مولوداً ذكراً ومن
عصير نبات لم أعرف نوعه . .

والأغلب أنها جرعة ملطفة لالتهابات الزور .

وفى أمراض العيون قرأت هذه الوصفات . .

لعلاج التهاب الجفون نقط من الصبر وسلفات النحاس (التوتيا
الزرقاء) تقطر فى العين بواسطة ريشة نسر .

وفى مرض الشعرة . .

نصحوا بانتزاعها ووضع مرهم من دم الخفاش

والرمد الحبيبي . .

الكحل وسلفات النحاس وكبريتات الأتيمون

وسادت في البردية أكثر من ثلاثين صنفاً من الأعشاب والنباتات
والمواد المعدنية التي توصف للأمراض . . . وبعضها لم أسمع عليه مثل
البابونج (لطرده الديدان) والقرطم (لعلاج الرمذ) والكولشيك والخردل
واللفاح والمر والعفص وجوزة الطيب وحبّة البركة والأفيون والسكران
والخشيش وبصل العنصر وشعر الجن والمانيزيا والزنجار وأملاح الحديد
والنحاس والرصاص والأتيمون . . .

وقرأت عن ألوان من التخصص عجبية . . . مثل التخصص في تحضير
الحقن الشرجية . . . ويسمون القائم بها . . . راعى الشرح . . . هذا عدا
التخصصات العادية في أمراض النساء . . . وأمراض العيون . . . والكسور .
والجروح . . . والحروق . . . والأورام . . . والأسنان .

وفي البردية وصف دقيق للذبحة الصدرية .

إذا فحست مريضاً يشكو من آلام في صدره وذراعه وناحية من معدته
. . . قل . . . هذا مرض خطير . . . والموت يهدده . . .

وكانت هناك ملاحظات دقيقة عن تشخيص الأورام باختبارها والدق
عليها بالأصبع . . .

كنت أمام طبيب كبير وعالم بالفلك والهندسة والحساب والتعنيط .

من يكون . . .

هل هو أمحوتب . . الطبيب المهندس العالم أيام الملك زوسر أول ملوك الأسرة الثالثة صاحب هرم مقارة المدرج . . والذي قرأنا أنه هو الذي أشرف على بناء الهرم المدرج ووضع تصميمه .

ولكنى لم أجده تمثالا واحداً ولا رسماً ولا اسماً محفوراً في المقبرة . .

ولم يرد ذكره مرة واحدة في البرديات . .

أىكون السبب أن المقبرة ليست مقبرته وأنه منقول إليها بعد نهب مقبرته الأصلية . .

عدت إلى كل الكتب التي كتبت عن أمحوتب .

وظللت أقرأ حتى الصباح حينما ثقلت أجفاني من التعب وكنت ما زلت أفكر في أمحوتب وفي التحنيط وفي علاقة أمحوتب بالتحنيط وبالطب وبالفلك وانطبقت أجفاني وذهنى ما يزال مشغولاً . .

* * *

وفي ما يشبه الحلم . .

أقول ما يشبه الحلم لأنى أعتقد أنى لم أكن نائماً . . وإنما كنت فى حالة استرخاء شديد وشبه غيبوبة من التعب . .

رأيت ما يشبه أمحوتب فى ثيابه الفرعونية

وحينما اقترب مني خيل إلى أن وجهه يلتبس على وجه آخر أعرفه وكان
المتر الفرعوني الذي يضعه حول خصره يشبه إزاراً آخر كان يضعه رجل
آخر نصف عريان مثل هذا الرجل . .

ودقت في وجهه . .

نعم إنه البراهما واجيسوارا بعينه في ثياب فرعونية ومشية فرعونية .
وعلى وجهه ذلك الجلال الذي كان على وجه أمحوتب القديم . .

وابتسم البراهما . . أو لعله أمحوتب . . لا أدري . .

وسمعتة يقول :

— أنا أعرف ما يشغلك . . أنت تريد أن تقرأ بقية البرديات التي
كتبتها عن التحنيط . . أنت تريد أن تعرف سر هذا الفن القديم .
قلت وأنا أرتجف .

— نعم . .

— ولكنه لم يعد سراً . . ولم يعد فناً . . وليس جديراً بكل هذه
الهالة التي خلقتوها حوله . . حينما كنا نقوم به في الماضي كنا نتركه
للنبوذيين من أخط الفئات الشعبية لتمارسه . .

— إن كل ما أعناه هو أن أعرف ماذا كانت تلك الفئات المنبوذة التي
تقوم بالتحنيط تفعل . .

— كان التحنيط بكافة عملياته يحتاج إلى سبعة يوماً يردد أثناءها
الكهنة الصلوات ويشرفون على المراسيم والطقوس وقد ارتدوا أقنعة
على هيئة رأس ابن آوى تمثل الإله أنوبيس وهو إله الموتى عندنا . .

وكان المخطط يبدأ عمله بتفريغ الجمجمة ، وكان هذا يحتاج إلى معرفة
دقيقة بتشريخ الجمجمة لأنه كان يقوم بهذه العملية بإدخال خطاف معدني
عن طريق الأنف يحترق قاع الجمجمة وينفذ إلى تجويفها . . ثم يدير هذا
الخطاف داخل الرأس حتى يهرس المخ ويحوله إلى هريسة يفرغها مرة
أخرى من الطريق نفسه . .

وبعد ذلك كانوا يفرغون البطن من خلال فتحة من الجانب الأيسر . .
ويستخدم المخططون في ذلك سكيناً من الحجر الصوان ، وكانوا يفرغون
البطن والصدر من أحشائها ومحتوياتها ما عدا القلب يتركونه في مكانه
موصولاً بشرايينه والكلية كانوا يتركونها في مكانها لاصقة بالظهر . . وإذا
حدث واتزع القلب أو إحدى الكليتين بطريق الخطأ كان يتمين إعادتها
إلى مكانها . . وقد كان هذا ضرورياً لاستمرار الحياة . .

وكان تجويف البطن والصدر يحشى بعد ذلك بالكثبان المشبع بالمواد
العطرية والصبغ والنظرون .

أما الأمعاء فكانت تملأ في العادة بالمر والينسون والبصل بعد غسلها

ينيد البلح والمواد العطرية ثم تلف بالضادات وتحفظ في أوعية خاصة ..

وكانت فتحة البطن تخاط بعد ذلك أو تسد بالشمع المذاب كما كانت تسد فتحات الأنف والقدم والأذنين والعينين بالمادة نفسها . .

ويأتي بعد ذلك دور التجفيف وهو أهم الخطوات لحفظ الجسم وصيائه وكنا نستخدم في ذلك ملح النطرون وهو ملح طبيعي من خصائصه أنه يمتص الدهن والرطوبة ..

وكان ملح النطرون بالإضافة إلى هذا ملح مقدس عندنا ، وكان يمزج بالبخور ويغسل به القدم أثناء الطقوس الدينية ..

ولما كان الجلد يتساخ والأظافر تتساقط غالباً أثناء التجفيف بالنطرون فقد كان لزاماً على المخط أن يحيط طرف كل أصبع بكسبان من الذهب أو المعدن ليضمن بقاء الظفر في موضعه ..

وكان يغمس الجثة عمودية حتى العنق في أوان كبيرة مليئة بالنطرون بحيث يبرز الرأس فوق الحافة وبذلك لا يتساخ ولا يتشوه بالملح .

وبعد الانتهاء من التجفيف كان الجسم يرفع من النطرون ويغسل بمحلول من الملح نفسه مضافاً إليه الزيوت العطرية . أما الأصابع فكانت تصبغ بالحناء والفجوات الناتجة عن تحلل العضلات في أطراف الجسم كانت

تمشى بنسالة الكتان أو نشارة الخشب والرمل حتى تعود إلى سابق مظهرها الطبيعي . . . وبعد ذلك تدهن الومياء بالصمغ السائل . . .

وكانت العمليات الأخيرة تجري والجسم ممدود على مناضد خاصة تشبه مناضد التشريح مجهزة ببالوعات أسفلها لصرف السوائل الزائدة . . . وكل منضدة عليها كتلتان مستعرضتان من الخشب يوضع فوقهما الجسم مرتفعاً عن السطح حتى يتمكن الكهنة المختصون بالتضميد ولف الأربطة من تأدية عملهم بحرية حول الجسم . . . وكانت هذه الأربطة تنعس في الصمغ وتلف في طبقات متعددة حول الومياء . . . بينما الكهنة يقرءون الصلوات والتعاويد التي تطمئن كل عضو على رد الحياة إليه . . .

وبعد اكتمال العملية كانوا يجمعون كل ما تبقى من المواد والأربطة الكتانية المتسخة والأوعية الفارغة ويودعونها في ركن من القبر أو حفرة قريبة . . .

بهذا كانت تنتهى عملية التحنيط التي خلقت حولها كل هذه الهالة من السرية .

أتراها كانت فناً جديراً بكل هذه البالغة !!!

وأين يكون إذن فن التحنيط من فن النحت والموسيقى والعمارة

وعلوم الهندسة والطب والفلك والرياضيات ..

يبدو أن خيالكم ذهب بكم بعيداً ..

وسكت .. ونظر إلى مبتسماً ..

وهتفت في حشرة

— ولكن من أنت .. إني أعرفك .. أعرفك .. أنت البراهما ..

لقد لقيتك من قبل .. وجلست إليك .

— منذ أربعة آلاف عام .. ربما

— أمحوتب .. البراهما .. مستحيل .

— أو الاثنان معاً . لم لا ..

— مستحيل .

وتزاحمت الكلمات في فمي .. وكنت أريد أن أسأله عن الطب على أيامه وعن الفلك وعن السحر .. وعن الحياة الأخرى ولكنني كنت أتكلم فلا تخرج من فمي ألفاظ .. إنما يخرج هواء ..

وكان قد بدأ يعطيني ظهره وينصرف ..

حاولت أن أصرخ لأوقفه ولكن صراخي كان يخرج من فمي هواء لا صوت له .

كان هو البراهما ذاته في مشيته وجلاله .. ولكن كيف .. كيف ..

شعرت أني أختق برغبة حادة لا أستطيع ن حققها ..

وتيقظت وأنا أعاني ألماً عظيماً في حلقى وصدرى وكأني كنت أجرى

والهت لعدة ساعات ..

وكنت مازلت منكفئاً على مائدتي وأمامي البردية الأخيرة ..

وما أن تمالكت جواسى حتى أسرعرت أدون في عجلة ما سمعته عن

عمليات التعنيط في حلمى ..

وبحثت عن مرجع لهيرودوت .. لأغراً ما قاله عن التعنيط ..

وأراجع عليه ما سمعته في منامى ..

وكانت مفاجأة حينما اكتشفت أن أغلب ما سمعته مكتوباً بنصه في

رواية هيرودوت عن التعنيط .. وهى الرواية التى جرى العرف على

تكذيبها ..

ومن هنا كان كلام أمحوتب .. أن فن التعنيط لم يعد فيه سر ..

وأن ما خلقناه حوله ليس إلا هالة من اللبانات ..

وكنت أفكر في أمحوتب الذى رأته في المنام ..

هل هو هو أمحوتب حقاً .. ولماذا يقول إنه أمحوتب والبراهما في

ذات الوقت .

كيف يكون هو نفسه وهو الآخر في نفس الوقت

كيف أكون أنا نفسي وأنا الآخر في نفس اللحظة .

وكيف يتعاصر الماضي والحاضر . . أم أنى أهدى .

أم إن انشغالى الشديد هو الذى صور لى كل هذه الرؤى . .

وقراءاتى فى هيرودوت هى التى أعادت تقسمها على لسان هذه الأشباح

التي توهمتها ..

إننا لا نرى فى الأحلام إلا نفوسنا وانشغالاتنا وهمومنا ..

ونحن فى العادة نتحدث على لسان كل من نسمعهم . وكل من

نراهم فى أحلامنا ..

وكان المطر قد عاد يدق على النافذة ويهطل بشدة . .

وما لبثت أن عدت إلى النوم على صوته الرتيب . .

وكان هذه المرة نوما عميقا كبأنه الموت . .

كان نوما كأنه الموت

وكأنا انسدلت عدة أستار سوداء بعضها فوق بعض أمام الرؤية-

وكأنا ثقلت الرأس فإذا هي جبل من حديد .

وكأنا ذابت الأطراف فأصبحت عدماً ..

ولكن شمة حياة ظلت هناك تحت هذا العدم . . شمة وجود .

فأنا موجود وسط هذه البحار الممتدة من الظلمة والسكون

نا موجود تحت الردم

أنا هنا ..

في أيديوس .

أنا في أيديوس .. نعم

وأنا أتبين المكان حولي جيداً .

إنه محفل هائل .. وهناك زينات أمام المعبد .. والملك والملكة
جاءا محمولين على عثقتين ملكيتين .. وهناك خلق كثيرون قد خروا
بواكين حينما ظهر الملك .

الملكة تبسم .. أنا أعرفها .. إنها نفرتارى والملك هو أحمس .
والكهنة يروحون ويحيثون بملابس أرجوانية ذات أكام واسعة .
وهذا هو « نون محب » حكيم القصر .

ونون محب يميل على هامساً وهو يشير إلى أحد الكهنة .

— هذا هو الكاهن الذى سيمثل دور أوزيريس .. وهذه هى
الساحرة التى ستمثل دور إيزيس .. وهذا هو ابنها حور .. إنك لن
تستمتع بالمرحبة إلا إذا عرفت قصة الآلهة عندنا ..

وأخذنى نون محب وراح يتمشى بى تحت كرمة ذات تعاريش كثيفة ..
وكانت استعدادات التمثيل تجرى على قدم وساق وراء المنصة الكبيرة على
شاطئ النيل ونحن نتحدث .

قال نون محب .

— تقول أدياننا أن الكون بدأ على صورة فضاء أزلى بلا حركة ولا

حياة ثم قام فيه رع إله الشمس الذى خلق نفسه بنفسه .. ومن قم رع
ومن أنفاسه ولد شو وتقنوت الذين تزوجا لينجيا نوت ربة السماء وجب
إله الأرض وتزواج جب ونوت وأنجبا الأخوة الأربعة إيزيس وأوزيريس
وست ونفتيس وهكذا تألف التاسوع الإلهى الذى يحكم الكون.

ثم بدأ الصراع بين الآلهة قتل ست أخاه أوزيريس ومزقه إرباً وألقى
بأشلائه فى الجهات الأربع واستولى على ملكه .

وأشار إلى المسرح

— ها هو العرض قد بدأ .. وها هو « ست » ملفعاً بعباءته
السوداء وعلى وجهه قناع مفرع يتسلل إلى المسرح ويقتال أوزيريس .

— هل هو عزقه بالفعل

— لا .. إنما هى براءة التمثيل هى التى جعلتك تظن أنه مزقه ، ومه
هذه الأشلاء التى تطايرت فى الفضاء إلا أشلاء دمية .

وها هى ايزيس تظهر على المسرح نائرة باكية تجمع أشلاء أخيها
وزوجها القتيل أوزيريس .. وها هى تقرأ الصلوات والتعاويد وتضم
الأشلاء بعضها إلى بعض ثم تحيىها بالسعر فتعود إلى أصلها ..

والأناشيد التى تسمعها هى أناشيد الفرع يبعث أوزيريس يرتلها الكهنة.

وأيزيس وأوزيريس الآن في خيمة الحب يتبادلان القبل وحوريات
المعبد يرقصن ويرتلن .

أوزير يا واهب الحصب والنماء

يا باعث الحياة في أجنة البذور

واهب الثمار الأشجار

ونائر الأزهار

على ربي الصغارى والسفوح والجبال

وها هي أيزيس قد حملت من قبله أوزيريس

وأوزيريس إله الأخصاب قد أودعها بذرتة

وها هي ايزيس تلد ابنها الإلهى حور بين أغاني المنشدات

يا حور .. يا عيوننا التي لا تنام .

يا ساهراً على العدالة

وحور إله الحق والعدالة يتطلع إلى اليوم الذى يثار فيه لأبيه من قاتله
ويسترد ملكه ويهزم إله الشرست وأنت ترى المتفرجون من عامة الشعب
قد بدأوا الآن يختلطون بالكورس ويشتركون فى التمثيل وقد انضم

الاخبار منهم إلى حور والأشرار إلى ست في المعركة الأزلية بين الخير والشر .

وها هي الأبواق تدوى في نذير الشؤم والحرب .. والمعركة تدور حامية بين حور وست .. والسيوف تلتحم .. والرقاب تطير والضحايا تسقط .. والدماء تسيل .

وأيزيس تطلق البخور لينتصر ابنها على عدوه .

وبقية التاموسع الإلهي يرقب المعركة الدائرة في جاد .

وهي معركة استمرت ثمانين عاماً .. ولم ينتصر فيها أحد .. فاقترح ست أن يتعمص كل منهما صورة فرس البحر ويلقى بنفسه في أعماق النيل .. ومن يستطيع منهما البقاء تحت الماء مدة أطول من الآخر ينتصر .

وها هو ست يلقي بنفسه في الماء ومن خلفه حور .. ويتلعهما النيل .

وها هو ست يقذف على الشاطيء بعين حور .. لقد قلع ست عين حور .. وقطع حور خصية ست . . وها هو يلقي بها هي الأخرى على الشاطيء .

وها هما خارجان من الماء في وقت واحد جريئحين لم ينتصر أحد منهما بعد كل تلك المذابح .

والإله رع يعبد إلى حور عينه وإلى ست خصيته ويقترح إجراء محاكمة
عادلة يشترك فيها التاموسع الإلهي .

وست يشترط أن تجرى المحاكمة في جزيرة منعزلة وألا تحضرها
الساحرة أيزيس .

وها هو « عنتى » يجدف بالقارب المقدس إلى الجزيرة ومعه ست
وحور وبقية الآلهة وأيزيس بينهما متكررة في هيئة عجوز حتى لا يعرفها
عنتى .

وها هي أيزيس في الجزيرة تسهر نفسها على هيئة عذراء فاتنة يقع في
حبها ست ويغازلها فتعكى له مصيبتها وكيف أن ابنها سطا عليه لص وسرق
ماشيته من الحظيرة . . . وست يجيبها مستكراً . . . وكيف سطا اللص على
الماشية وأين كان رب العائلة . . . إنه لمجرم أثيم .

وأيزيس تصرخ صراخاً حاداً عند سماع كلماته وتتحول إلى طائر
وتحط على فرع شجرة وهي تناديه ساخرة .

أبك على نفسك .. إن فمك هو الذى قالها ومهارتك هى التى حكمت
عليك أيها اللص الذى سرقت ابنى وسلبته منك . . . أيها المجرم الأثيم .

وها هو ست يلطم خديه ويذهب باكياً إلى رع .

وتنطلق الأبواق وينشد النشيدون معلنين انتهاء الفصل الأول من المسرحية .

ونحن الآن في فترة استراحة .. ويمكنك أن تتناول شيئاً
من الطعام .

وكان المسرح يتحول في تلك الأثناء إلى صباط محدود عليه مئات من
أواني الجعة والنيذ وأعداد من سلال التين والعنب وألوان من الفطائر
والحلوى والدجاج المحمر .. وكل الموجودين يشتركون في الطعام .

وقال لي نون محب إن هذه المسرحية تستمر لمدة أيام .. وأن فصولها
العديدة تمثل يوماً بعد يوم طوال فترة الأعياد وهي كالعادة لا تنتهي إلى
نهاية شأنها شأن صراع الخير والشر الذي يستمر بلا نهاية طول الأزل .

وغاب لحظة وعاد معه فطيرة ناولها إلى

— فطيرة مقدسة من فطائر العيد .. هذه الفطائر باركها الكاهن
الأكبر بتعاويذه وصلواته وهي تزيد من قوة من يأكلها وتطيل في عمره .

قلت فجأة :

— هل تصدق هذا الكلام الفارغ ؟

ونظر إلى في دهشة وقد انعقد لسانه .. بينما اردفت .

— هذه البركات التي يوزعها كاهنك الأكبر ومن ورائه تاسوعة
الإلهي .. وهذا الكلام الفارغ عن إيزيس وأوزيريس .

وظل ما كنا مدة ولم يرد وقد ظهرت عليه علامات التفكير .

قلت :

— هل تصدق هذه الأكاذيب الساذجة ؟ .

أجاب الحكيم :

— وهل تكون كاذباً حيناً تقول خبيثتك التي تحبها . . حبيبتى . .
ياحبة القلب . . يا واهبة الحياة والسعادة . . يا بلبلًا مغرداً على قنن . . هل
تكون خبيثتك بلبلًا حقاً . إن الأديان أشعار بعضها شعر جيد وبعضها شعر
رديء . . ولكنها دائماً تدل على شيء في القلب . . شيء صادق .

وخيل إلى أني سمعت هذه النبرات من قبل .

ونظرت إلى ملامح الرجل الذي يكلمني . . وكدت أقسم أني أعرفه . .
وأنى قابلته . . وأنى جلست إليه واستمعت إلى حكته . .

نعم . . إنه البراهما .

براهما وأجيسوارا مرة أخرى .

قال البراهما أو نون عجب لا أدري .

— أما إيزيس وأوزيريس بوحور وست فما هي إلا أسماء تُعرف

بها على الموجودات . . والشئ والخير موجودان . . أليس كذلك . .
وهل يدل اسمي على شيء . . .

أبدأ . .

إنها مجرد ألفاظ . . مثيرة للضحك مثل إيزيس وأوزيريس .

لماذا لا تضحك علي اسمك ؟

وناولني الفطيرة قائلاً :

— كل هذه الفطيرة . . صدقتي لن يشبع الكلام جوعك . .
ولو ظللنا تسكلم حتى الصباح فسوف تظل محتاجاً إلى الفطيرة .

قلت وأنا أقضم الفطيرة .

على أي حال كان هناك كثيرون من مواطنيك يشاركونني الشك في
دياناتكم بدليل مقابركم التي سرقت وحرقت مابها من موميات وحطمت
مابها من تماثيل . . وكان اللصوص في جميع الأحوال هم الفراغنة أنفسهم
وتابوت خوفو الفارغ وتماثله المحطمة في هرمه العظيم تشهد على ذلك .

قال في هدوء :

— إن التابوت الفارغ في هرم خوفو ليس هو تابوت خوفو . .
والعمرات التي اكتشفها اللصوص كانت كلها عمرات وهمية . .

مومياء خوفو وتابوته وتمحفة مازالت سليمة في مكانها بالهرم لم تصل
إليها يد . . والتابوت الفارغ وضع للتضليل .

وكان هذا الكلام قبلة بالنسبة لى كهندس آثار .

هتفت فى فضول :

— وأين إذن توجد غرفة الدفن الحقيقية إذا كان التابوت الذى
عثر عليه تابوتاً وهمياً .

— أسفل بئر سرية لم تكتشف بعد .

— وكيف يمكن الوصول إلى تلك البئر ؟

ونظر إلى نون محب فى استغراب .

ولم يستطع أن يخفى دهشته لفضولى الزائد فقال ضاحكاً .

— هل تريد أن تشترك مع اللصوص فى حملة أخرى .

— أنا .. لا .. لا .. إنما هو مجرد فضول للحقيقة .

— إن المكان لا يعرفه إلا الكاهن الأكبر فى معبد الشمس .

وأردف بعد فترة صمت :

وهناك أقوال أخرى بأن المسكان مكتوب فى بردية فى مقبرة المهندس



« حم أيون » الذي بنى الهرم .. وقد سمعت كاهناً من المرتلين في معبد الشمس يقول إن الباب الحقيقي يوجد على نقطة ما في الضلع الشرقي للهرم .. والحقيقة كما قلت لا يعرفها أحد .

— وهل يقول كهنتكم أيضاً إن « أبو الهول » تحته غرفة سرية .

— لا .. إن أبو الهول ليس مقبرة .. إنه تمثال الإله آتوم .. وهو نفسه إله الشمس رع في رحلته في عالم الظلمات كل مساء وقد تحول إلى أسد ليهزم أعداءه من الجن والمردة من سكان عالم الظلمات .. والتماثيل منحوت في كتلة مصمتة من البصخر وأمامه معبد عظيم .. وكان الكنعانيون يعبدونه على أنه إلههم « حورون » أو « حول » .. ومن هنا جاء لكم اسمه « بو حول » أو « أبو الهول » .

— أنت أستاذ عظيم في التاريخ .

— أشكرك .

— ولكني لا أصدق كيف تكون نون محب وأنت تعرف أشياء لم ترها في عصرك .. وكأنك عشت في كل العصور .

— حتماً .. إنه لشيء رائع أن يعيش الواحد منا في كل العصور .
ونظرت إليه .. كان هو البراهما نفسه .. الرجل الذي عاش كل
الأسماء والأزمان واحتوى الأبد كله في داخله .

وكان الكورس والممثلون قد بدأوا يتقاطرون على المسرح ويستعدون
لأداء أدوارهم وكان الكهنة يرتدون أثوابهم الكهنوتية .. ويضعون
الأقنعة المرعبة على وجوههم .. ولكن النظر كان يبهت تدريجياً ..
والأشكال كانت تذوب وتختلط في سبيكة من النور المبهم تضايق العين
.. واللوسيقى كانت تتحول إلى ضجة .. وكنت أشعر بالضييق الشديد
.. وأتقلب في مكاني .. وفتحت عيني لأجد أن الشمس في عيني ..
والعرفة نهار .

وبنظرة سريعة إلى ساعة يدي اكتشفت أني قد نمت أكثر من ثلاثين
ساعة متصلة .

وقمت من مكاني كأنى أقوم من قبر ..

وكانت أصدااء الحلم الغريب ما زالت تطاردنى ..

الهرم الأكبر .. والعرفة السرية التي لم تكتشف ..

كلام لا يمكن أن يصدق .. هذيان .

وكتبت اسم « حم أيون » قبل أن أنساه .

وتناولت فطوري بسرعة ..

واكتشفت أنى نسيت چا كتنى فى البلكونة وأن المطر أغرقها وأنها
لم تعد صالحة للاستعمال .. كان المطر قد ظل يطارد هذه الجاكتة منذ كنت
فى المقابر من يومين حتى ساعات قبل طلوع الشمس حتى أحاطها إلى شىء
كالبشكير .

وبينما كنت أنقل محتوياتها إلى الجاكتة الأخرى لاحظت أن المنديل
لم يعد صالحاً هو الآخر ..

وبينما كنت اتفحصه بنظرة قبل أن ألقيه للفسيل لاحظت عدداً من
حبات القمح التى جئت بها من مقبرة أمحوتب بين طياته .

وكانت كل حبة قد انفلتت عن نبتة خضراء صغيرة وحملتت فى
الحبات النباتية فى ذهول .

بعد أربعة آلاف سنة ..

بعد أربعة آلاف سنة .. هل هذا شىء يصدق ؟؟ !

بعد أربعة آلاف سنة .. تدب الحياة . . . ويقوم الجنين النائم

من تابوته ؟؟ !!

كنت أفكر في « حم أيون »

كان هدياناً .. ولكن أى شيء لم يعد هدياناً ؟ ! !

لقد نبتت حبة القمح بعد موات أربعة آلاف عام في باطن الأرض ..
وسبقت حقائق الواقع غرائب الخيال المجنح .
لم يعد هناك مستحيل .

كانت معلوماتي عن (حم أيون) أنه ابن سنفرو وأحد إخوة خوفو ..
وأحد الذين أشرفوا على بناء الهرم الأكبر في المرحلة الأولى من بنائه ..
فمقبرته مثل سائر مقابر الأسرة الملكية لا بد موجودة في الجبانة الملكية
حول الهرم .. والوصول إليها ليس أملاً بعيداً .

استخرجت إذناً بالحفر في الجبانة الملكية .. وذهبت على رأس فرقة
من العمال إلى منطقة الهرم .

وبدأت بالطواف حول المقابر التي كشف عنها بالفعل وكانت كلها
بمسبوقية ولا وجود لشيء فيها سوى الجدران .

ثلاثة أهرامات صغيرة تحولت إلى ركاب هي مقابر زوجات خوفو.
الثلاث تليها مقابر الوزراء وكبار رجال الدولة والكهنة .

رسمت خطأ على امتدادها وأمرت بالحفر .

وبينما كان الحفر يجري .. كنت أقرأ النقوش على كل جدار قائم وكل
قطعة حجر وكل طلل ملقى على الرمال .. أبحث عن إشارة أو خبر عن
«حم أيون» .

جلبت معي كل المراجع البردية التي ذكرت خوفو وهرمه .. وكل
ما كتب من أساطير وقصص حول خوفو وأسرته .

كنت أعلم أن الحفر سوف يستمر أياماً ..

وكانت السلاوي الوحيدة أن أقطع الوقت في الحفر على طريقي ..
في بطون السكتب .. وخوفو شخصية أسطورية في الأدب المصري القديم ،
مثل عنتر عندنا .

ولهذا وجدت أكثر من مادة قصصية تدور حوله ..

في بردية يعود تاريخها إلى الأسرة الثانية عشرة وجدت هذه القصة -
الغريبة عن مغاليق الهرم .

كان خوفو يريد دائماً أن يعرف سر مغاليق هيكل تحوت ليصنع
مغاليق تماثلها في هرمه .

وسمع خوفو عن الساحر العجوز « ددى » الذى يبلغ من العمر مائة سنة وعشرآ ويا كل كل يوم خمسمائة رغيف ويشرب مائة إناء من الجعة ويا كل نخذ ثور ويجعل الأمد يسير خلفه وديعاً كالكلب ويعرفه سر مغاليق هيكل تحوت .

وطلب خوفو من ابنه أن يسافر بنفسه ليعرض له ذلك الساحر .

وذهب الأمير الصغير إلى قرية سنفرو حيث يوجد الساحر . . وكان الأمير يجلس ممدداً على محفة من الأبنوس يحملها العبد . . وعندما وصل إلى منزل الساحر ددى وجده نائماً على حصير أمام عتبة بيته واثنان من الخدم يدلكان له قدميه .

ونفض ددى لاستقبال الأمير وحياء أحسن تحية .

وقال الأمير إنه موفد من أبيه الملك ليدعوه إلى قصره ليتمتع بأحسن المآكل والمشارب .

قال ددى — فى أمان . . فى أمان يا حور يا بن الملك الذى يحبه أبوه .
وذهب معه إلى شاطئ النهر حيث كانت السفن راسية فى انتظاره .

وطلب ددى أن يخصصوا له سفينة لأجل عائلته وسفينة أخرى لأجل كتبه ومخطوطاته فخصص له الأمير السفينتين .

ولما وصل ددى إلى القصر استقبله خوفو فى قاعة القصر الكبرى .
ذات الأعمدة وبادره قائلاً — لماذا لم أرك قبل الآن .

فأجابه الساحر — يأتى الإنسان عندما يدعى يا صاحب الجلالة .

قال جلالاته — هل صحيح ما قيل من أنك تستطيع أن تعيد رأساً
مقطوعاً إلى مكانه ؟

فأجاب ددى — نعم أستطيع ذلك يا مولاي الملك .

فأمر خوفو بإحضار أحد المسجونين المحكوم عليهم بالإعدام ولكن
ددى قال إنه يفضل أن تكون التجربة على حيوان .

فأحضروا له أوزة وقطعوا رأسها ووضعوا جسمها في غرب القاعة
ورأسها في شرقها وأخذ ددى يتلو سحره وتعاو يذنه فأخذت الأوزة تتحرك
وكذلك رأسها حتى تلاقيا فركب الرأس في مكانه فوق الجسد وعادت
الأوزة للحياة وأخذت تصيح وأعادوا التجربة مرة ثانية في بطة ثم في ثور
فنجح في إحيائها .

ثم سأله خوفو إذا كان يعرف سره خالق هيكل تحوت .

فأجاب ددى بأنه لا يعرف سرها ولكنه يعرف مكانها .

فلما سأله عنها قال إنها في صندوق من حجر الصوان في إحدى قاعات
معبد الشمس وأنه لا يستطيع إحضارها .. ولا يقدر على ذلك سوى
أكبر أطفال ثلاثة تحمل بهم امرأة اسمها ددت .

فلما سأل خوفو ومن تكون ددت .

قال إنها زوجة كاهن رع في بلدة تسمى سخبو .

وتمضى القصة بعد ذلك فنعرف منها أن الساحر نزل في ضيافة خوفو ..
وأن خوفو رتب له يوماً ألف رغيف ومائة إناء من الجعة وثوراً كاملاً
ومائة حزمة من الكرات .

ونعرف بعد ذلك أن ددت زوجة الكاهن في بلدة سخبو قد حملت .
ووضعت أطفالها الثلاثة وأن الالهات إيزيس ونفتيس وسخنث وحقت
هن اللاتي أولدنها وأنهن تركن لها في مكيال الشعير ثلاثة تيجان ذهبية
.. بشارة بأن الأطفال الثلاثة سوف يصبحون ملوكا .

وتروى القصة بعد هذا أن الأم ددت بينما كانت في صومعة الغلال
سمعت غناء وموسيقى ورقصاً .. وحينما تلفت وجدت أن هذه الموسيقى
صادرة من مكيال الشعير الموضوع في الركن .. وحينما نظرت في المكيال
وجدت التيجان الذهبية الثلاثة وعرفت أنها لأطفالها وأنهم سوف يصبحون
ملوكا .. وأخفت الأم الخبر عن الجميع حتى لا يصل إلى علم خوفو لأنها
كانت تعلم أن خوفو يقتل كل طفل يعرف أنه سيتولى الملك من غير
أطفاله .

وتقف القصة هنا لأن بقية النص ممزق ومفقود .

ولكن الجزء الموجود من القصة يدل على ما كان يعانيه خوفو من

قلق .. وعلى حرصه في أن يكون لهرمه مغاليق لا تفتح ولا يصل إلى
حسرها أحد مثل مغاليق معبد تموت .

* * *

كنت أقرأ في هذه البرديات حينما جاءني أحد العمال يهرول فرحاً
وفي يده لوح من الاردواز عليه كتابة هيروغليفية .

كانت الكتابة أشبه بتحية أو أغنية أو خطبة قيلت في الاحتفال
بتتويج أحد الملوك وكانت ترجمتها كالآتي :

يا له من يوم سعيد فالأرض والسماء مبتهجان لأنك أنت سيد
مصر العظيم .

لقد رجع الهاربون إلى مدنهم وظهر أولئك الذين كانوا مختبئين

وأصبح الجائعون سعداء وقد شبعت بطونهم وأصبح الظالمون مرتوين

ومن كان عارياً أصبح يرفل في الكتان الجميل ومن كان في أسمال

أصبح يرتدى أجمل الثياب .

وأطلق سراح من في السجون

أما الأرامل فقد تركزن أبواب بيوتهن مفتوحة وصار يدخلها الزائرون

وابتهجت السفن وهي فوق المحيط لأن البحر اختفى موجه وأخذت السفن تصل إلى الشاطئ وهي تسير بالرياح وبالمجاديف .

ولم يكن على اللوح إشارة إلى الملك المحتفل به أو إلى الكاتب

وذهبت مع العامل إلى المكان الذي اكتشف فيه اللوح .. ولكن لم أجد مكاناً أو قبراً أو مصطبة أو بناء من أى نوع وإنما مجرد كومة من الرمل .

وأمرت بتركيز عمليات الحفر في هذه الكومة .

ووقفت على رأس العمال أختبر كل صغيرة وكبيرة تظهر على أطراف .مناولهم .

عثرت في الرديم على جبات من الحرز الأخضر وتماثيل صغيرة ودعى من العاج وجصارين وثلاثة ألواح أخرى بها شروخ متعددة لكن كتابتها مقروءة .. وهي أغنيات غزل من أخ لأخته ومن أخت لأخيها (كان الغزل والزواج بين الأخوات أمراً مألوفاً في أيام الفراعنة وأكثر الملوك الفراعنة تزوجوا أخواتهم وأخواتون تزوج ابنته) .

تقول الأخت لأخيها في الأغنية :

إلهى .. يا أخى - إنه جميل أن أذهب إلى البحيرة لأغتسل أمامك

وأجعلك ترى جمالى وقد ارتديت ثوبى المصنوع من أجمل الكتان

الملكى عندما يتل .

إني أغطس في الماء معك ثم أعود إليك بسمكة حمراء وقد استقرت
جميلة بين أصابعي .. تعال وانظر إلى

ويقول الفتى :

عند ما أرى أختي آتية أفتح ذراعي لأعانقها فيتهيج قلبي في مكانه
مثل العصفور .

إذا عانقتها وفتحت لي ذراعها أحس كأنما أصبحت مثل شخص
من بلاد بونت مضمخ بالعطر .

فإذا قبلتها وفتحت لي شفيتها أحس بأني قد انتشيت دون أن أتذوق الجمعة
ليتني كنت جاريتها التي تقوم على خدمتها حتى أرى لون جسدها كله
ليتني كنت غاسل ثيابها ولو مدة شهر واحد لأغسل العطر الذي
في ثيابها

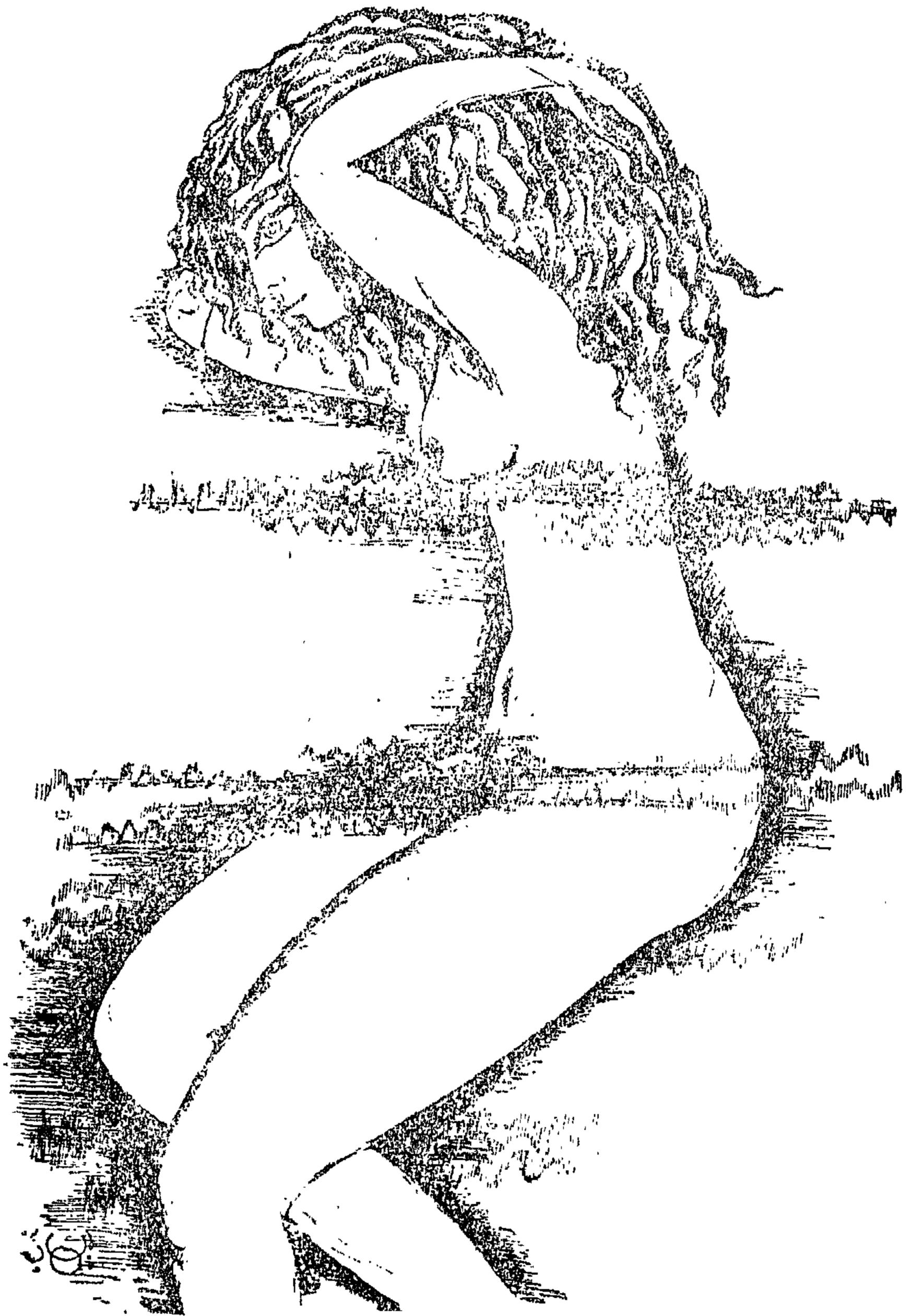
ليتني كنت الحاتم الذي في إصبعها

والسوار الذي في ذراعها

والعقد الذي على صدرها

وفي اللوح الثالث أغنية حب رقيقة كلماتها كالآتي :

ضياؤها ساطع وجلدها منير



جميلة العينين عندما تنظر
 حلوة الشفتين عندما تفتحها لتحدث
 لا تنبس بكلمة لا حاجة لها
 طويلة العنق جميلة الثدي
 وشعرها أسود يلمع
 ذراعها يفوق الذهب في طلاوته
 أما أصابعها فمثل براعم اللوتس
 ثقيلة الأرداف نحيلة الخصر
 ينيء ساقاها عن جمالها
 وما أرشق قدمها عند ما تسير
 لقد سلبت روحى مع قلبها
 إنها تجعل أعناق الرجال تنثنى
 مستديرة نحوها إعجاباً عند رؤيتها
 ما أسعد الذى يلثم قمها
 فانه يصبح أقوى من كل الرجال

كنت أمام قبر شاعر أو أمير مولع بجمع المخطوطات الغنائية

* * *

لم يسفر الحفر طول النهار عن شيء جديد . . أخرجت المعاول قناطير
عن الرمال .. ثم لا شيء .

كانت قطع الحجارة التي يعثر عليها تخرج مفتتة .

وتحت الحجارة كنا نجد تلالا أخرى من الرمال .

وحيثما كانت الشمس تغرب كان اليأس قد بلغ منى مبلغه .

وكنت أدور في مكاني مثل نحلة قطعوا رأسها .

كنت أفكر .. وأعصر دماغى .

وكل مكان في رأسى أصبح مملوءاً بكلمة واحدة هي « حم أيون » .

حينما خرقت أذنى صرخة مدوية .

لقد سقط أحد العمال في حفرة .

وأسرعنا نحو العامل وانتشلناه ..

ونظرت في المكان حيث انزلت قدمه وسط الرديم .. وبدأنا

تزيل الرمال .

لم تكن حفرة .. وإنما كان بئراً ..

وكانت سلام البئر واضحة :

كانت تنزل درجة درجة إلى قرب القاع حيث تبرز جوانب مقاطعة
حجرية كبيرة ..

أخيراً ..

أصبحنا على بعد خطوات من غرفة الدفن

ونزلت الدرجات .. درجة .. درجة .. وقلبي يدق من

الاتفعال .

وصلت إلى الدرجة الأخيرة في قاع البئر ، وكان قد سبقني هناك بعض
العمال .. وكانوا يعملون معاولهم في السقطة الحجرية ..
وبمجهود قليل أمكن إزاحتها ..

وانكشفت الغرفة الصغيرة ذات السقف الواطيء أمامي ..

وكان هناك تابوت من الجرانيت في وسطها محفور عليه اسم «حم أيون» ..
وكان التابوت مغطى بغطائه ومنظره يبشر بأن المومياء الراقدة بداخله
لم تسرق ..

ورفعنا الغطاء الجرانيتي ونحن نتعلل بالآمال لتفاجأ بالتابوت خاو على
عروشته والجلثة مسروقة ..

المنظر المعتاد الذي يكسر القلب .. والذي يتكرر في كل مقابر هذا
العصر ..

أغلب الظن أن الهكسوس لم ييتوا حجراً على حجر في تلك الأيام ..
ولم يتركوا معبداً أو قبراً إلا خربوه ..

وكنت أقرأ النقوش الهيروغليفية على الجدران وفيها يروى حم أيون الأعمال التي قام بها .. كيف أنه قام على رأس بعثة إلى جبل المغارة بسيناء لإحضار الفيروز والنحاس . . . وكيف نقش اسم أبيه الملك المعظم سليل الآلهة خنوم خوفو وي (الاسم الكامل لخوفو . . . وخنوم وهو الإله صانع البشر وهو يرسم دائماً على جدران المعابد أمام عجلته الفخارية وهو يصنع مخلوقاته البشرية) على مناجم النحاس (وجد الاسم محفوراً بالفعل في مناجم النحاس بسيناء) ..

ويروى حم أيون في مكان آخر كيف رأس بعثة إلى مدينة جيل بلبنان لإحضار الأخشاب . . وكيف بنى معبداً مصرياً في جيل لعبادة إله الشمس .

وكيف اشترك في بناء الهرم الأكبر وفي هندسة المعبد الجنائزى أمامه وكيف رصف أرضية المعبد بحجر الدولوريت الأسود المقطوع من محاجر الفيوم .

وكيف أنشأ جسراً ضخماً ينزل من الهضبة حيث الهرم إلى الوادي حيث معبد الوادي الكبير ورصد الفنانين لخرفته وتزيينه باللوحات الجميلة (لم يكتشف المعبد ولا الجسر بعد ومكانه بحسب الكلام يقع تحت نزلة السنان) وفي أسفل الكلام إشارة عن تغيير في تصميم الغرف الداخلية بالهرم وتعديل في بناء مسالكه وممراته .. لكن النقوش الهيروغليفية متأكلة والجدار محطم بشكل يجعل القراءة مستحيلة . . لكن ما لفت نظري هو رسم هرمي في أقصى الجدار وعلى ضلعه الأيمن (بالنسبة لوضع

الجدار والمقبرة يكون هو الضلع الشرقي) علامة ويبدو أن الرسم هو شرح
لنص المكتوب . .

وربما كان الكلام عن مدخل على الضلع الشرقي للهرم كما قال نون
عجب . .

احتمال . . مجرد احتمال . .

ولكن بدون هذا الاحتمال يبدو وجود الرسم الهرمي غير مفهوم إلا
إذا كان حرفاً هيروغليفاً جديداً لا نعرفه في قواميسنا . .

كنت منهمكا في قراءة الكتابة الهيروغليافية حينما قال لي العامل
بجواري إن هناك سرداب .

وكان العامل يطل من طاقة مستديرة في الجدار . .

وأسرعت إلى حيث يطل ووضعت عيني في الطاقة لأجد تمثالا عظماً
أغلب الظن أنه تمثال حم أيون نفسه . . وعلى مدى ما ترى العين كان
هناك سرداب طويل . .

وكان لابد أن نوسع الطاقة لدخول إلى السرداب . .

وكانت على جدران السرداب صلاة إلى حورس الذي يرعى أجسام
الموتى ليبدل الميت على طعامه ويعاونه على أن يتغذى من قربانه ويتنفس
الهواء الطلق حتى لا يَحْتَقِق في صندوقه ويجموع ويأكل من برازه ويشرب
من بوله . .

وعلى جانبي السرداب تراصت صفوف من أواني الجعة الفخارية . .
وفي أحد الأركان إناء كبير فيه عدد من اللقاقات البردية . . الكنز الثمين
الذي كنت أبحث عنه . .

* * *

وحينما عدت إلى مكنتي في مساء ذلك اليوم كانت هناك أحلام كثيرة
تراودني . .

إن خرافة « حم أيون » لم تعد خرافة . .

وتفوش المقبرة أثبتت أن تصميم الغرف الداخلية للهرم قد أجرى فيه
تعديلات والمسالك والممرات السرية رسمت لها مداخل جديدة . .

والعلامة على الضلع الشرقي للشكل الهرمي المرصوم لا بد أنها تدل
على شيء . .

كنت أقرب بسرعة من السر . .

وبسطت البرديات أمامي . .

كانت مجموعة من الوصايا . .

مرت عليها بسرعة بحثاً عن هدي . .

ولكن لم أجد سوى وصايا من السطر الأول للأخير . .

والظاهر أنها كانت الوصايا التي حفظها حم أيون عن أستاذه . . أو

فإنها جزء من كتاب الوصايا الذي كان يعلمه المعلمون في ذلك العصر . .

تقول البرديات . . .

احذر من الاقتراب من النساء في أى مكان تدخله فقد انحرف ألف
رجل عن جادة الصواب بسبب ذلك . . إنها لحظة قصيرة كالحلم والموت
جزاء الاستمتاع بها . .

لقد سمعت بأنك تجرى وراء ملذاتك وتذهب من شارع إلى شارع
حيث تفوح رائحة الجعة من فمك . .

إن الجعة تنفر الناس منك وتودى بك إلى الهلاك وتجعلك كدقة
مكسورة في سفينة لا تفيد في التوجيه إلى يمين أو يسار . .

لا يداخلك الغرور بسبب علمك ولا تختال وتنفخ أوداجك لأنك
رجل عالم . . استشر الجاهل كما تستشير العالم فما من أحد استطاع أن يصل
إلى آخر حدود الفن ولا يوجد الفنان الذى يباغ الكمال فى إجادته . .

إن الحديث الممتع أشد ندرة من الحجر الأخضر اللون ومع ذلك
فربما تجده لدى الأرقاء والبروارى اللأئى يجلسن إلى الرحى . .

هدىء من روع الباكي ولا تظلم الأرملة ولا تحرم إنساناً من ثروة
أبيه ولا تطرد موظفاً من عمله وكن على حذر من مظلوم يضمم الانتقام
من ظاله . .

لا تقتل فان ذلك لن يكون ذا فائدة بل عاقب بالضرب والحبس فان
ذلك يقيم دعائم البلاد اللهم إلا من يثور عليك وتتضح لك مقاصده

فإن الله يعلم خائنة القلب والله هو الذي يعاقب بالموت . .

لا تقتل رجلاً إذا كنت تعرف جميل مزاياه .

ولا تقتل رجلاً كنت تتلو معه الكتابات (يعني زميلك في الدراسة) . .

لا يوجد شجاع في ظلام الليل ولا يمكن لإنسان أن يحارب وهو

وحيد . . .

لا أصدقاء لأحد في يوم الأسي .

إذا كان لسانك هو دفة سدينتك فإن إله الكون هو ربانها . .

إن الكلام يتدفق بسرعة عندما يحس القلب بالأذى وهو أسرع من

الريح عند مخارج المياه فاحذر من الاندفاع ساعة الغضب . .

لا تقل « ليست لي خطيئة » وتشغل نفسك بالتفكير في خطايا الناس . .

فإنه وحده هو المختص بالحكم في خطايا الناس وهو الذي ختم على أقدارهم

بأصبعه . . .

لا ترقد في الليل خائفاً بما يأتي به الغد فإنه يحقق دائماً ما يريد . . .

لا تتخذ الرجل سريع الغضب لك صاحباً .

لا تسكر من إصدار الأوامر إلى زوجتك في منزلها إذا كنت تعلم

أنها سيدة صالحة ... لا تقل لها أين الشيء .. أين مكانه .. أين أبده ..
إذا كانت قد وضعت في مكانه المعهود .. لاحظ بعينيك والزم الصمت حتى
تدرك جميل مزاياها ..

يا لها من سعادة حينما تضم يدك إلى يدها .. كثير من الناس هنا
لا يعرفون حال الإنسان دون حدوث الشقاق في منزله ..

ليسكن قلبك ثابتاً غير متقلب ولا تدع امرأة أخرى تسرق قلبك ..
ضعف الحيز الذي تعطيه لأمك واحملها كما حملتك ..

لقد كنت عبثاً ثقيلاً عليها ولسكنها لم تتركه للأخرين بمحاوئه ..

لقد حملتك تسعة شهور في بطنها وظلت مغلولة بك وظل نديها في
فمك مدى ثلاث سنوات .. وبالرغم من أن قاذوراتك شيء تتقزز منه
النفس فإن قلبها لم يتقزز .. ولم تقل ماذا أفعل في هذه القاذورات ..

لقد أدخلتك المدرسة عندما ذهبت لتعلم الكتابة .. وكانت تذهب
من أجلك كل يوم تحمل إليك الحيز والجمعة من منزلها ..

والآن وأنت شاب ولك زوجة تذكر ما فعلته لك أمك ولا تجعلها
ترفع يديها إلى الله لتشكوك ..

لا تميز بين شخص ذي حيثة وشخص فقير بل عامل كل إنسان
بحسب عمل يديه ..

لا تحدث ضرراً لبني أقامه غيرك ولا تبني قبرك من أحجار الخرائب ..

إن أذن الطفل موضوعة فوق ظهره وهو يحسن السمع عندما يضرب
لا تقضى يوماً واحداً دون عمل وإلا فيكون الضرب نصيبك .

إذا جلست على الأكل مع أشخاص كثيرين فلا تقبل كثيراً على
الطعام حتى ولو كنت تشتهيّه فإنه من المنجّل أن يكون الإنسان شرهاً ..

إن كأساً واحدة من الماء تروى الظمأ ولا فائدة من الإفراط في
الشراب فلن يقوى هذا قلبك .

تذكر أن شبابك هو أمن كنز تملكه وافعل في شبابك ما يعينك
في شيخوختك فأنت لا تعرف الشيخوخة حيث الفم ساكت لا يتكلم
والعينان ضيقتان كليتان والأذنان مصابتان بالصمم والقلب كثير النسيان
والأنف مسدود لا يستنشق الهواء والقيام والقعود كلاهما مؤلم وطعم
الحسن كطعم القبيح والعقل يخطيء في كل الأمور ..

كانت هذه خلاصة لكتاب الوصايا . . وأغلب هذه الوصايا كانت
مكتوبة شعراً . .

وكانت هذه نهاية ما حصلت عليه من مقبرة « حم أيون » . .

هل كان مقدرألى أن أمضى وحدي لأكتشف بقية السر . .

إن كل الدلائل كانت تشير إلى أن الضلع الشرقي للهرم هو مكان
الباب السرى . .

والضلع الشرقي هو أصعب الأما كن صعوداً في الهرم فأحجاره كبيرة
وسليمة وحادة الأركان وكل حجر منها كالجبل ..

كنت مستغرقاً في التفكير حينما لفت نظري حكم البوسطة على
المكتب . . .

لقد أغفلت أمرها طوال هذه الأيام حتى تراكت هكذا . . .

وكانت أغلبها استفسارات من المتحف المصري عن معلومات
ومواصفات خاصة بالقطع الأثرية التي اكتشفناها أخيراً وعن ظروف
كشفها . . .

أما الخطاب الأخير فقد كان عليه طابع من الهند . . .

وفتحته في قاق . . .

كان من أمرى خان ينعى فيه وفاة البراهما ويسألني عن أحوالي
ويقول إن البراهما سأل عنى قبل أن يموت . . .

وتاريخ الخطاب ١٠ ديسمبر وهو تاريخ متفق مع ليلة اكتشاف
لقبرة أمحوتب تلك الليلة التي قضيتها في أحلام مشوشة مختلطة وكانت صورة
البراهما تختلط على بصورة أمحوتب طوال الليل . . .

أمسكت بالخطاب في رهبة ورحت أفكر في البراهما . . .

وخيل إلى أنه يملأ المكان حولي . .

وحاولت أن أستلهمه الصواب . .

إذا كان الإنسان له بقاء بعد الموت . .

وإذا كانت الأرواح المتعابة تتواصل فلا شك أنه سوف يلهمنى . .

لا يمكن أن يكون الإنسان هو ذلك التركيب المعقد من البروتينات
والأملاح المعدنية ولا شيء غير ذلك . .

إن هذه المواد البروتينية الحساسة ليست سوى جهاز الكتابة التلقائية
في يد روح شقيقة تصور به فكرها وإلهامها . .

كنت أشعر أنه لا بد من المضي في طريقى إلى آخره لأكتشف
الحقيقة أو أهلك دونها . .

ولم يكن أمامى سوى سبيل واحد . .

هو الصعود على طريق الآلام . .

« الصعود على طريق الآلام » تعبير متواضع جداً عن الصعود على
للهرم من حافته الشرقية ..

إنها مخاطرة رهيبية مخوفة بالموت في كل خطوة ..

كل حجر يحتاج إلى ساعة من الاحتيال حوله فهو أملس وسامق
كالجبل ولا بد أن تنبش فيه بالأظافر والخطاطيف حتى تتسلق عليه ..

وفي سن الحسين يصبح كل شيء صعباً .

كنت أستريح بعد كل حجر وكأني قطعت عشرة أميال في الجرى
حتى فقدت أنفاسي ..

لقد حاولت أن أحصل من مدير مصلحة الآثار على أمر بتجهيز بعثة
لاستكشاف الحافة الشرقية للهرم ورفع السقالات اللازمة .. وحينما علم
للمدير أني أبحث عن باب سرى للهرم ضحك .. ضحك حتى استلقى على قفاه ..

— ولماذا تبحث عن باب سرى ، لتدخل منه إلى ماذا ؟

إن داخل الهرم أصبح مكشوفاً لا سر فيه . . .

للسالك والممرات وغرفة الملك . . . وغرفة الملكة . . . والبئر . . . كلها ،
أما كن أكتشف أمرها . . . وفي إمكانك أن تدخلها بقرش ومعك دليل .
من مصلحة السياحة يشرح لك ما تراه مجاناً . . .

وحيثما قلت له إن هذه الممرات والمسالك والغرف مزيفة . . . وأن تابوت
الملك الفارغ وضعه الفراعنة للتضليل . . . عاد يضحك . . . ونظر إلى كأنه
ينظر إلى مجبول . . .

ب . . . أنسيت أن الهرم كان نهياً مباحاً لكل مقتحم من أيام الهكسوس .
إلى أيام محمد على حيث فكر التركي الغازي أن يقتلع حجارتها لينى بها .
القناطر الخيرية . . . وأنه لم يوجد لص هاو أو محترف خلال الأربعة آلاف
سنة التي مضت إلا وتقبه ببحاً عن الأسرار الخرافية التي تكلمني عنها . . .

الهرم لم تبق منه إلا خرابية مفتوحة نهبا للصوم . . .

الهرم لا سر فيه . . . أنت تعلم . . .

ولم أشأ أن أقول له إني أحلم بالفعل . . .

ولم أشأ أن أروي له ما رأيته من أمر البراهما ونون مخب حتى لا يضعني

في قيص الكتاف ويرسلني إلى مستشفى المجاذيب . .

وأخذت المخاطرة كلها على عاتق وحدي . .

لم أجد دليلاً يقبل أن يصاحبني في صعودي عبر هذه الحافة الخطرة . .

ولم يكن منهم من يعرف طريقه لعبور هذه الحافة بالفعل . .

كنت أول من يرتاد هذا الطريق . .

وكان يعزيني أني لن أحتاج لأكثر من الصعود إلى الثلث الأول من

الحافة . . فالعلامة كانت في مكان ما بالثلث الأول . .

إن آلامى لن تطول . .

وكنت أخص كل حجر من جميع جوانبه قبل أن أرشق فيه الحطاف،

باحثاً عن مكان يمكن أن يكون باباً . . وأنحس الحجر الصلد وأدق عليه

وأتسمع الاهتزازات الصوتية بأذني . .

كانت كل كتلة حيزية مصمتة من جميع جوانبها . . لا أثر يدل على

تجويف أو ممر مفرغ بالداخل . .

ورحت أرشق الحطاف وأصعد . .

وجأة أحسست بالحطاف ينزلق ويهوى . . ورأيت نفس أدهور من

حالى . . وأرتطم في أكثر من مكان من جسدى . . وانطبقت السماء على

الأرض . . ورأيت وجه البراهما ناظراً إلى ياشفاق . .

* * *

وحينا فتحت عيني كنت راقداً في سرير في مستشفى . . وذراعي
وساقي في جباثر . . وحول صدري أربطة عديدة لاصقة حق العنق .

وكان على رأسي طبيب ينظر إلى نظرة حانية ويهمس :

— لقد نجوت بمعجزة . .

وكنت أحمق في الجبس والأربطة اللاصقة التي تحيطني من كل مكان . .
غير مصدق لهذه النجاة المزعومة . .

ويردف الطبيب :

— نعم . . لقد كسرت ذراعك وساياك وتحطمت بعض ضلوعك . .
ولكن رأسك لم يصب بسوء وعظام حوضك سليمة . . وهذا أمر خارق
بالنسبة لرجل يسقط من أعلى الهرم ويرتطم مرة بعد مرة بأحجاره . .
لقد كانت الملائكة تحملك على يديها .

وكان المدير يقف بجوار الطبيب ويهتف في دهشة :

— أنت فقدت عقلك بلا شك . . كيف تفعل هذا الفعل . . ألم أقل

لك إن ما تفكر فيه هو الجنون بعينه . .

نعم إنه الجنون . .

وحياتنا كلها جنون . .

نحن نأكل الجوع ونشرب الظمأ ونحصد الندم ونموت جهلاء كما ولدنا
لا نعرف من أين وإلى أين وكيف . . ولماذا . . كنا . . أصبحنا . . إليس
هذا هو الجنون . .

كنت أفكر وشفقتاي مضمومتان وعيناي حائمتان في العرقة البيضاء
كأنها الوهم . . وأنفاسي تؤلمني كأنها مناشير . . ولا أقوى على الكلام . .
وغرس الطيب حمنة المورفين في ذراعي . .

وهدأت للناشير . .

أصبحت مثل أفاعى لينة تلتف حول صدرى وتضغط عليه في حنان
مخيف . .

* * *

خيم الظلام على العرقة . .

وانقطعت خطوات النوبتجي السهران من المر . .

وانسدل سكون رهيب . .

إن ما قاله الحكيم المصري القديم في كتاب وصاياه صحيح . .

حقاً . . لا يوجد شعاع في ظلام الليل . . ولا يمكن لإنسان أن يحارب

وهو وحيد ..

إني أشعر بأنى أقرب من ختام قصتي ..

أشعر بالخوف ينتصيني اغتصاباً ..

أشعر أنى فقدت الشجاعة وفقدت الوسيلة إلى أى شىء .. فها هما
ذراعاي مكسورتان وأنفاسى هى الأخرى متقطعة مكسورة وقلبي كسير
وعقلي عاجز ..

لقد بلغت نهاية القدرة على طريق الآلام ..

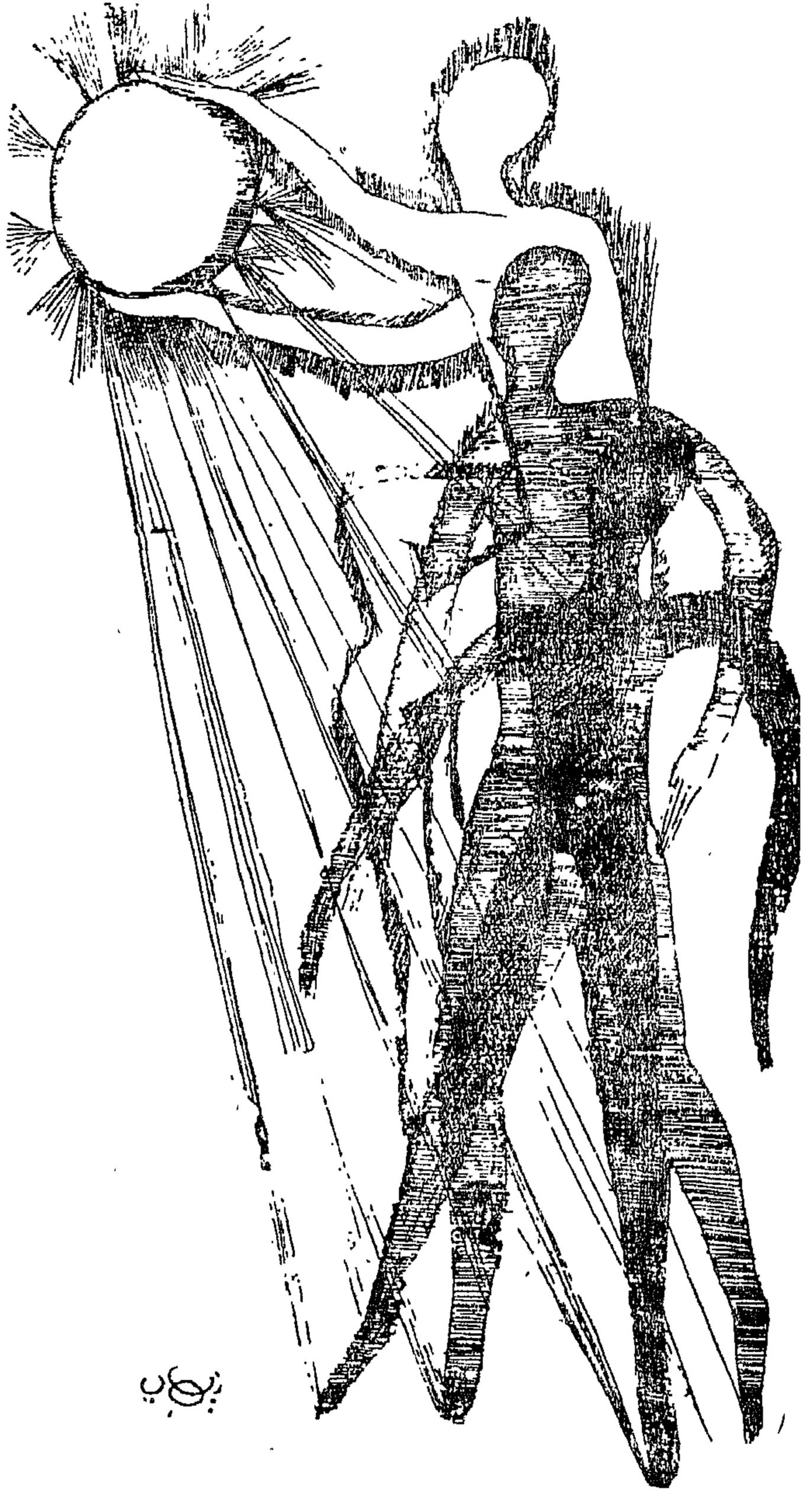
وعلى الآخرين أن يكملوا الرحلة مستدلين بالعلامات القليلة التى
وضعتها على الطريق ..

لم أعد أستطيع أن أفعل شيئاً ..

وكيف يستطيع عقل وحيد يتعدى رؤى الواقع الصفيق أن يفعل
أكثر مما فعلت .. ما أنا إلا إشارة على الطريق ..

والطريق طويل بلا نهاية .. ولا بد أن تتكاتف كل العقول لإضاءته
واكتشافه .. إن مانعه قليل .. وما نجعله كثير لا حد له ..

والإنسان عدو لما يجهد .. وهو لهذا لا يحاول أن يفهم .. ويخلق
كل باب يدخل منه النور بغيائه وتعصبه ..



الحلقة
الآخرة

بجانب

ولكن الحقيقة أعظم من أن يحتكرها عقل واحد أو مذهب واحد ..

والحياة فوق جمع المذاهب لأنها أصل لها جميعاً ..

ولكن التعصب يسد الطريق على كل عقل يحاول أن يجتهد ويحجب

عنه المدد الذي يأتيه من ينبوع العظيم الذي لا ينضب .. من

الحياة ..

وحينها تتعكم المذاهب في الحياة .. تتجمد الحياة وتتوقف

وتموت ..

تموت الدهشة .. ويموت الفضول والخيال والابتكار ..

تموت النشوة الحارقة التي يعيشها المجهول وتتحول الحياة إلى قواعد

وقوانين يسمونها علماً .. وهي ليست من العلم في شيء ..

العلم مفتوح الذراعين لكل الحقائق ..

العلم لا ينجل من مناقشة الوهم والهذيان والخرافة .. لأن المعرفة

غير المحدودة قانونه والتواضع خلقه ..

العقل لا يخشى اللامعقول ،

والإرادة لا تعرف المستحيل ..

سوف يرى الكثيرون في بعض ما روته في قصتي خرافات .
لماذا لا نحاول أن نفهم معاً بدلاً من أن نحترق ما نجعله وتقول عنه
خرافات ..

إن الحقيقة أقرب إلينا من أصص الريحان التي نضعها تحت نوافذنا
لو حاولنا أن نفهم . : أنها تحت أنوفنا ولكننا نستعمل أنوفنا وفقاً لتقاليد
وضعت لنا من قبل .. لماذا لا نحاول أن نشم في حرية ..

لماذا لا ننظر براءة الطفل لنرى الأشياء في جدتها المدهشة ولنرى
الظواهر نابضة موحية بآلاف الحقائق ..

* * *

ليس لدى ما أضيفه لهواة الغيب . . فما عندي قد قلته . وقدرتي
بلغت نهايتها .

وكل ما أملكه هو أن أشير إلى الحقيقة . أشير إليها بذراعي
مكسورتين .

إن حياة تنتهي بالموت ولا بقاء بعدها هي حياة لا تستحق أن نحياها .
إنها ليست حياتنا .

إن حياتنا أعظم من أن تنتهي إلى السود والتراب .

إن القداسة التي تتسم بها الحياة في صميمها تنفي عنها هذه النهاية
الهازلة .

هل فكر أحدكم في نفسه . .

هذه النفس التي صيغت من مادة الهذيان والأحلام والرؤى . .

إن أجمل ما أخرجته لنا حضارة الإنسان بدأ حلاماً . .

كل ما يقوم على الأرض من مدن وأبراج ومصانع ومعابد بدأ حلاماً
وهذياناً ورسوماً وخطوطاً مجردة في الفراغ . . بدأ هباء في عقل . .

من نبضة خيال قام العالم . .

كلمة السر هي هنا . .

في داخل نفوسنا . .

لو أننا فكرنا في نفوسنا لروعتنا أكثر من كل صنوف السحر . .

ولكننا نمضي منطلقين في رحلة العمر وعيوننا مقلوقة إلى الخارج . .

لا ننظر إلى وراء . . ولا نتوقف لتساءل . . ولا نتأمل داخلنا . .

نلتبس الأسرار والأبرار فينا . .

ونبعث عن السحر . . ونحن السحر . .

ونتظر المعجزة ونحن المعجزة ..

كيف يمكن أن تصبح هذه النفس حفنة من تراب وتنتهي إلى
لا شيء ..

إننا لا نموت .. كما أن البراهما لا يموت .. كما أنه عاش في كل الأمكنة
وفي كل الأزمنة .. كما أنه ولد في مختلف الحضارات كما تولد الكلمات
ليقول نفس الغايات .. وكأنه كان يعيش حضارات متعاصرة .. كذلك
نحن يتعاصر فينا الماضي والحاضر ونرى سريان الزمن من منظار الأبدية
لا موت هناك

ليس بعد الحياة إلا حياة ..

وليس في الكون المتحرك نقطة سكون ..

الكل يتحرك في دورة أبدية لا نهاية لها ..

كما تخرج الفراشات من الشرائق .. وكما تخرج السويقات الحضر من
حبات القمح المدفونة أربعة آلاف عام .. كذلك نخرج من حياة إلى
حياة في استمرار أبدى ..

أقول هذا لمن يجيئون بعدى ..

وأقول لمن يسألني عن متوسط عمر الإنسان .

إنه اللانهاية ..

-أوحة الغلاف للفنان رجاء

المطبعة العالمية ١٦ و ١٧ ش. صريح سعد بالقاهرة :

منتدی سور الأزبکیه

WWW.BOOKS4ALL.NET

للمؤلف

- الله والانسان .. (مقالات)
 ابليس .. (مقالات)
 آكل عيش (مجموعة قصص قصيرة)
 عنبر ٧ .. (مجموعة قصص قصيرة)
 شلة الانس .. (مجموعة قصص قصيرة)
 الغابة .. (عن رحلة في السودان وكنيا وتنجانيقا)
 اينشتين والنسبية .. (دراسة)
 لغز الموت .. (دراسة)
 الاحلام .. (دراسة)
 يوميات نص الليل .. (مقالات)
 في الحب والحياة .. (مقالات)
 اعترفوا لي .. (من رسائل القراء)
 ٤٥ مشكلة حب (من رسائل القراء)
 المستحيل .. (رواية)
 الافيون .. (رواية)
 العنكبوت .. (رواية)
 الزلزال .. (مسرحية)
 الانسان والظل (مسرحية)
 الخروج من التابوت . (رواية)
تحت الطبع
 رائحة الدم .. (مجموعة قصص قصيرة)
 رسائل عشاق .. (مجموعة قصص قصيرة)

دار النهضة العربية

٢٢ شارع عبد الحليم مروان